جوستاف فلوبير

ثلاث قصص

ترجمة
إيليا حكيم

مراجعة
عبدالحميد الدواخلي

الكتاب: ثلاث قصص

الكاتب: جوستاف فلوبير

ترجمة: إيليا حكيم

مراجعة: عبدالحميد الدواخلي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فلوبير، جوستاف

ثلاث قصص / جوستاف فلوبير، ترجمة: إيليا حكيم، مراجعة: عبدالحميد الدواخلي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٠٩٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع: ١٦٠٥ / ٢٠٢٠

ثلاث قصص



مقدمة

هذه قصص ثلاث، لكاتب من أشهر كتاب القرن التاسع عشر في فرنسا، هو: جوستاف فلوبير. ظهرت في كتاب واحد عام ١٨٧٧ وكانت آخر ما نشره المؤلف أثناء حياته، وقد بلغ من العمر وقتذاك الخامسة والخمسين واكتمل فنه، وذاع صيته، بعد صدور قصة "مدام بوفاري"، وقصة "سالامبو"، وكتابيه "تربية عاطفية" و"تجربة القديس أنطونيوس".

ولكل من هذه الكتب طابعه الخاص، يظهر فيه اتجاه الكاتب، وخضوعه لنوع معين من التيارات الأدبية. ففي قصة "مدام بوفاري" وقصة "تربية عاطفية" يجنح الكاتب نحو الواقعية في روايته وفي وصفه، يختار شخصياته من واقع الحياة، ويتحرى الدقة التامة والحقيقة في تفصيل الأحداث ورسم الصور، وتحليل النفسيات، فيبتدع اتجاها جديدا يخرج به عن التيار السائد في عصره: أقصد الرومانتيكية التي يحلق أتباعها في الأجواء العليا، ويعيشون في الأبراج العاجية، يأخذون موضوعاتهم إما من بطون التاريخ بعد أن يطلقوا خيالهم في حقائقه، وإما من مغامراتهم وأحاسيسهم.

وظن قراء فلوبير، بعد أن كتب مدام بوفاري أنه قد انفصل تماما عن الرومانتيكية، فإذا به يرجع إليها، وقد رأى الواقع تافها مبتذلا، فيكتب قصة "سالامبو"، يعيش فيها ويمرح بين الخيال والتاريخ، فيحيي موات ذلك العصر القرطجني، تضطرب فيه الأشياء والكائنات، يعيش فيه ملوك وملكات، وتقوم فيه قصور وقلاع، تنبض بحياة من سكنوها في يوم من الأيام، ليطويهم الزمان أبد الدهر.

ويظل فلوبير موزعا بين هذا النوع من الرومانتيكية والواقعية، وهو يبدو مناقضا لنفسه، حتى ظهر كتابه "قصص ثلاث"، فجاء إثباتا على أن الكاتب — أو الفنان — لا يتقيد باتجاه ثابت، وإنما يكتب ما يحلو له أن يكتب، يكتب للفن، سواء أكان الفن في سرد الواقع أم في تصوير الخيال، وسواء أكانت صوره مأخوذة من البيئة المحيطة به، أو منتزعة من زوايا التاريخ. ولذلك يكتب فلوبير قصصه الثلاث يجمع فيها بين الرومانتيكية التصويرية في أسطورة القديس جوليان، وقصة هيروديا، وبين الواقعية الخالصة في "قلب بسيط"، وهو كما ذكرنا لا يناقض نفسه في الجمع بين هذين الاتجاهين، لأن الوحدة في كتاباته تنحصر في كلمة "الفن" وفن فلوبير في أن يبتعد فيما يكتب عن التعبير الذاتي، فهو لا يريد لمشاعره أن تظهر خلال كتاباته، كما كان الشأن مع من سبقوه من كتاب الرومانتيكية، أمثال ڤيني، وموسيه، ولامارتين وهوجو.

والقصة الأولى تحكي لنا حياة قلب عاش للحب وبالحب، والبساطة هنا ليست السذاجة كما يظن، أو الطهر كما يبدو، إنما هي البساطة بمعناها الحقيقي، أي خلو القلب من كل تعقيد، ومن كل عاطفة ما عدا الحب. عاطفة واحدة تتملك هذا القلب، قلب "فيليسيتيه"، انطلقت إلى الحياة وكأنما كتب لها أن تتعلق بشئ تفنى فيه، فالتقت بشاب خدعها فتفانت في حبه، ثم تركها، فعملت خادمة عند سيدة، تفانت أيضا في حبها، على الرغم من خشونة طباعها، وكان يعزيها حبها لطفلي سيدتها، ثم تعلقت بابن أختها الذي كان يتردد عليها مستغلا طيبتها، ولما راح عنها كل أولئك، لم تجد من يملأ فراغ قلبها غير ببغاء، ومات الببغاء فحنطته، وانتهى حبها له إلى العبادة حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

وقد اختار فلوبير لبطلة قصته اسم "فيليسيتيه" ومعناه "هناء"، وهو نوع من السخرية التي لا تخلو من الإشفاق، فهناء هذه لم تعرف في الواقع يوما واحدا هنيا، ولكنها عرفت الحب طوال حياتها، فكان في ذلك هناؤها.

أما القصة الثانية فتروي لنا أسطورة يتناقلها أهل بلدة من مقاطعة نورمانديا وهي مسقط رأس جوستاف فلوبير. والأسطورة مصورة على زجاج إحدى الكنائس، ويصور المشهد الأخير منها القديس جوليان وقد رفعه السيد المسيح معه إلى السماء. أما القصة نفسها فهي قصة القضاء والقدر، وما أكثرها شبها بقصة "أوديب".

نشأ جوليان في قصر أبيه وأمه، طفلا مدللا، وعلمه أبوه الفروسية والقنص، حتى أصبح في الصيد لا يجارى، وقد قسَت حياة القنص قلبه فصار لا يرحم الحيوان، ولا يعرف غير القتل ملهاة له، ودعا عليه يوما حيوان من تلك الحيوانات التي بطش بها، ولعنه، وتنبأ له بأنه سوف يقتل أباه وأمه، وأخذ جوليان حذره، وقد عملت النبوءة في نفسه، فهرب من قصر أبيه، حتى يبعد عن كل احتمال تتحقق فيه النبوءة، ومرت الأيام والسنون، وأصبح جوليان أميرا كبيرا، وزوجا لإبنة ملك عظيم، ولكن القدر يسوق له أباه وأمه، فيقتلهما خطأ وهما راقدان في سريره، فإذا أدرك ما فعل، هجر زوجته وقصره، وراح يكفر عن جريمته، في حياة النسك والزهد حتى غفر الله له، ورفعت روحه إلى السماء.

والقصة الثالثة تنقل إلينا فصلا من مأساة النبي يحيى، وهو الذي يلقبه المسيحيون بيوحنا المعمدان ويسميه جوستاف فلوبير في قصته "يهو كنعان".

وتدور وقائع القصة كلها في يوم واحد، وهو اليوم الذي رقصت فيه "سالومي" ابنة هيروديا، أمام هيرود أنتيباس حاكم طبريه، وطلبت منه، مقابل إشباع شهوته، رأس النبي يحيى، وكان ذلك نذيرا بانهيار الحكم الروماني، وعبادة الأوثان، وانتصار المسيحية، كما تنبأ يحيى بقوله: "لكي يرتفع يجب أن انخفض"، يقصد بذلك السيد المسيح.

وجمال القصة ليس في حوادثها، وإنما في طريقة روايتها، وأسلوبها وعباراتها، وفن الكاتب الذي جمع بين روعة الخيال، وضخامة المشاهد، مع دقة الوصف وبراعة التعبير.

ويتحلى فن فلوبير في القصتين الأخيرتين، في جمعه بين التصور والواقع، فهو ينقلنا إلى أجواء بعيدة كل البعد عن واقعنا، وغريبة كل الغرابة عن تصورنا، ولكنه يبدو كأنه عاش فيها، وكأنه درس كل صغيرة وكبيرة منها، فهو يرسمها لنا رسم الرائي لها، فتصبح ماثلة لأعيننا مثول الحاضر أمامنا.

المترجم

قلب بسيط

"طوبى للبسطاء فلهم ملكوت السموات"

"الأنجيل المقدس"

"... لو أن خطاياها ذاعت في جميع أرجاء الأبروسية، لما كان فيها ما يشينها أو يتأذى به السامعون".

من قصة "قلب بسيط"

"وبكت "فيليسيتيه" سيدتها كما لا يبكي الخدم سادتهم، إذ كيف تموت سيدتها قبلها ؟ إن ذلك ليحير فكرها، ويبدو لها مخالفا لناموس الطبيعة، لا يقبله العقل وإنما تستبشعه النفس".

من قصة "قلب بسيط"

(١)

خلال نصف قرن كانت سيدات الطبقة المتوسطة من أهل "پون ليڤيك " يحسدن "مدام أوبان" على خادمتها "فيليسيتيه".

كان أجرها مائة فرنك في العام، وبهذا الأجر تولت شئون المطبخ والمنزل من حياكة وغسل وكي، فعرفت كيف تلجم الحصان، وتسمَن الدواجن، وتضرب الزبد، وبقيت مخلصة لسيدتها بالرغم من أن مدام أوبان لم تكن على خلق كريم.

تزوجت مدام أوبان فتى جميل الصورة، معدم الثراء، مات في بداية عام

١٨٠٩، خلف لها طفلين صغيرين، وديونا كثيرة. فباعت ممتلكاتها إلا مزرعة في "توك" وأخرى في "جيفوس"، تدرَان عليها كل عام خمسة آلاف من الفرنكات على أكثر تقدير. تركت دارها في "سان ميلين"، لتسكن خلف السوق في بيت لا يكلفها كثيرا، قد ورثته عن أجدادها.

ويقع ذلك البيت بين ممر ضيق وشارع صغير ينتهي إلى النهر، قد غطى سقفه بالحجر الأسود، وأرضيته من الداخل غير مستوية تجعل المرء يتعثر في خطاه، وبه طريقة تفصل بين المطبخ وبين الحجرة التي تقضي فيها مدام أوبان سحابه يومها، جالسة بجوار النافذة الصغيرة، على كرسي من القش. وكسى الحائط في جزئه الأسفل باللون الأبيض، وصفت على امتداده ثمانية مقاعد من خشب المجنة (الكابلي) وتكدست فوق "بيان" قديم كومة مرتفعة من الصناديق والورق المقوى، يعلوها جهاز لقياس الضغط الجوي. وكانت هناك مدفأة من الرخام الأصفر، من طراز لويس الخامس عشر، وضع بجانبيها كرسيان مرتفعان وثيران. وعلقت على الحائط في وسط الحجرة ساعة على هيئة معبد "فيستا" وتكاد تنتشر في جميع أرجاء المسكن رائحة عطنة، لانخفاض أرضيته عن مستوى الحديقة.

كانت غرفة "السيدة" في الطابق الأول، وهي حجرة متسعة الأرجاء، زينت جدرانها بورق نقشت عليه أزهار باهتة اللون، علقت عليها صورة "السيد" مرتديا زي الملكيين الأنيقين، وتتصل بالغرفة الكبيرة حجرة أخرى أصغر منها، وضع فيها سريرا طفلين صغيرين، نزعت منهما حشيتاهما، ثم تأتي حجرة الاستقبال وهي لا تفتح إطلاقا، قد غصت بقطع من الأثاث تختفي كلها تحت غطاء. وبعد ذلك دهليز يؤدي إلى حجرة مكتب بها مكتب

عريض من الخشب الأسود وأحاطت بالنضد من جوانبه الثلاثة مكتبة رصت فوق أرففها كتب وأوراق مبعثرة عتيقة، أما الحائطان الجانبيان فقد اختفيا تحت رسوم بالريشة، ومناظر نقشت بألوان الماء وصور من الفنان "أودران"، وكلها ذكريات عهد بائد من الرخاء والترف. وتطل على المروج من الطابق الثاني كوة، يتسلل الضوء منها إلى غرفة "فيليستيه".

لا يكاد يطلع الفجر حتى تهب فيليسيتيه من فراشها، كيلا تفوتها الصلاة ثم تقبل على العمل طوال يومها فلا تتركه حتى المساء، وإذا انتهى العشاء أعادت الصحاف إلى مكانها وأغلقت الباب في إحكام، ودست خشب الوقود في الرماد واستلقت أمام الموقد ومسبحتها الوردية في يدها.

لم يكن هناك من هو أكثر منها إلحاحا ومساومة في الشراء ولم يكن هناك من الخادمات الأخريات من تطمع في منافستها نظرا لنظافتها ولمعان آنية مطبخها. كانت مقتصدة بطبيعتها تأكل مستأنية، وتجمع من فوق المائدة فتات الخبز بأصبعها، وخبزها يصنع خصيصا لها، يزن الرغيف منه إثنى عشر رطلا ولا ينفد قبل مضى عشرين يوما.

وكان زيها ثابتا لا يتغير صيفا ولا شتاء تلتف بوشاح هندي تثبته بدبوس في ظهر ثوبها وتضع على رأسها قلنسوة تخفي شعرها، وتلبس جوارب ذات لون رمادي ومجولا قصيرا أحمر، وترتدي فوق قميصها ميدعا بصدار مثل زي الممرضات في المستشفيات.

كان وجهها ناحلا وصوتها رفيعا، تبدو وهي لا تزال في الخامسة والعشرين من عمرها، كأنها في الأربعين، حتى إذا بلغت العقد الخامس، لم

تعد تبين لها سن بعينها، وكانت دائمة الصمت، معتدلة القوام، متسقة الحركات، كأنما هي تمثال خشبي لا مرأة، تتحرك بطريقة آلية.

(٢)

كانت لها، كما كان لغيرها، قصة غرام.

كان أبوها يعمل بناء، وسقط يوما من فوق الصقالة فمات. ثم قضت أمها، وتفرقت أخواتها، . فكفلها أحد المزارعين، ووكل إليها، وهي بعد صغيرة، رعاية البقر في الحقل، فقاست من البرد وهي ترجف تحت أسمالها البالية، وشربت من البرك وهي منبطحة على بطنها، وضربها سادتها بلا سبب يذكر، واتهموها آخر الأمر بسرقة ثلاثين صلدة، وهي من هذه التهمة بريئة، ثم طردوها، فعملت في مزرعة أخرى وأسندت إليها حظيرة الدواجن، وأعجب بها أصحاب المزرعة وأثار هذا الإعجاب غيرة زميلاتها.

وذات مساء من شهر أغسطس، وقد بلغت الثامنة عشرة من عمرها، استدرجها أترابها إلى حفل أقيم من "كولفيل"، وهناك انبهرت أنفاسها مما شاهدت، من ضجيج العازفين على الكمان، وتألق الأشجار بالأضواء، وتعدد الألوان في الأزياء، ورقع الدنتلا، والصلبان الذهبية، وهذه الكتل من البشر يتواثبون في آن واحد، فانتحت مكانا وقفت فيه خاشية متواضعة، وإذا بفتى يبدو عليه الثراء يدنو منها، وقد وضع غليونه في فمه، واستند بمرفقيه على عريش عربة نقل، ثم دعاها إلى الرقص، وقدم لها خمر التفاح، كما قدم لها القهوة والفطير وأهدى إليها منديلا حريريا، ثم ظن أنها فطنت إلى قصده، فعرض عليها أن يعود

بها إلى منزلها، فإذا ما وصلا إلى جانب حقل من حقول القرطمان، طرحها على الأرض بوحشية فاعتراها الخوف وأخذت تصيح إلى أن تركها مبتعدا عنها.

وفي مساء يوم آخر، كانت تسير في طريق "بومون"، فاعترضتها عربة كبيرة تحمل تبنا، وكانت العربة تتقدم في بطء، فأرادت "فيليسيتية" أن تسبقها، ولم يكد ثوبها يحف بالعجلات حتى رأت "تيودور" فعرفته.

دنا منها وفي مظهره هدوء وطلب إليها أن تتجاوز عن كل ما بدر منه، معتذرا بأن الخمر كانت هي السبب.

لم تحر جوابا، واستشعرت الرغبة في الهروب.فأدار الحديث في الحال عن المحاصيل الزراعية، وعن أعيان البلدة، قائلا: إن أباه ترك "كولفيل" وجاء إلى مزرعة "إيكو" وبذلك أصبح جارا لها، ولكنها لم تزد عن أن قالت: "عجبا!" ثم مضى يقول: "إن أهله يريدون أن يزوجوه، ولكنه لا يريد العجلة، ويؤثر إنتظار الزوجة التي يختارها هو بنفسه". فأطرقت، فسألها هل تفكر في الزواج، فابتسمت وقالت بأنه لا يجمل به أن يسخر منها، فأقسم أنه لا يسخر، ثم أحاط خصرها بذراعه اليسرى، وسارت وهي تعتمد على ذراعه، وانقضى وقت، ثم هدأ خطوهما، وكانت الريح رخاء، والنجوم متألقة، والتبن المكدس فوق العربة يضطرب أمامها، والخيول الأربعة تجر أذيالها، وتثير الغبار، ثم تسير إلى الجهة اليمنى دون أن يأمرها أحد، فيقبل الفتى "فيليسيتية" مرة أخيرة، تختفي بعدها والظلام يطويها.

وحصل تيدوور منها على أكثر من لقاء في الأسبوع التالي.

كان يلتقيان داخل الأفنية، خلف جدار، أو تحت شجرة منعزلة، ولم

تكن هي في براءة العذارى من الأبكار، فقد تعلمت الكثير من الحيوانات، ولكن العقل وغريزة الشرف حالا بينها وبين السقوط، وقد أثارت مقاومتها وجد تيودور بها، وزادته ولها، فعرض عليها الزواج، لعله بذلك يرضي حبه — أو ربما كان اندفاعا منه دون روَية — ولم تصدقه فيليسيتيه في أول الأمر، حتى أقسم لها بأغلظ الأيمان.

ولم يمض وقت طويل حتى أفضى إليها بأمر كان يزعجه، قال: إن والديه، في العام الماضي، حصلا له بالمال على رجل يحل مكانه في الجندية، ولكن قد يستدعي بين آونة وأخرى، وفكرة الجندية تخيفه وتقض مضجعه وقد رأت "فيليسيتية" في هذا الجبن دليلا على رقته، فزاد إشفاقها عليه، وصارت تهرب ليلا لتلتقي به، فيرهقها بطلباته ويثقل نفسها بما يفضي به إليها من همومه.

وقال لها آخر الأمر، إنه سيقصد بنفسه إلى دار الحكومة ليستقصي الأخبار، ثم يعود إليها ما بين الساعة الحادية عشرة، ومنتصف الليل.

وما حان الموعد أسرعت نحو عشيقها. لم تجده، وإنما رأت أحد أصدقائه الذي أفضى إليها بأنها لن تقابل "تيودور" بعد اليوم، فقد تزوج من سيدة عجوز تدعى مدام لهوسيه من توك، على جانب كبير من الثراء، كي يضمن لنفسه الخلاص من الجندية.

وكانت لحظة من الحزن، طاش فيها صوابها، فارتمت على الأرض، وراحت في عويل وصراخ، هتفت تدعو الله أن يعينها، وظلت على هذه الحال من النواح، وحيدة وسط الحقول حتى شروق الشمس. ثم قفلت راجعة إلى

المزرعة، ولم تكد تصل إليها حتى أبلغت سادتها عزمها على الرحيل، وانتظرت حتى مضى الشهر، فاستلمت أجرها، وانصرفت متجهة إلى بلدة "بون ليفيك" بعد أن صرَت كل متاعها القليل في منديل.

وأمام الخان وقفت تسأل سيدة من الطبقة المتوسطة، يبدو من غطاء رأسها أنها أرملة، وكانت السيدة تبحث فعلا عن طاهية لها، ولم تكن الفتاة على جانب كبير من المعرفة ولكنها أظهرت من التحمس للعمل، والتواضع في الأجر، ما حمل مدام أوبان على أن تقول لها: "حسنا، إني أقبلك".

ولم يمض ربع ساعة حتى كانت فيليسيتية في دار سيدتها.

عاشت أيامها الأولى فيما يشبه الخوف والاضطراب، كانت ترجف من شكل المنزل نفسه إذ كان يبدو أن ذكرى "السيد" تحلق في كل أرجائه! وكان "بول" وهو في السابعة من عمره "وفرجيني" وهي لا تكاد تبلغ الرابعة، يبدوان في ناظريها كأنهما صنعا من مادة ثمينة، كانت تحملهما فوق ظهرها كما يحمل الحصان راكبه، وحظرت عليها مدام أوبان، تقبيلهما في كل لحظة، فأحسَت ألما وحسرة، ولكنها بالرغم من ذلك، كانت تشعر بالسعادة تغشاها، وقد أذابت رقة الحياة الجديدة، الحزن الذي كان يحويه صدرها.

وكان يتردد على المنزل كل أيام الخميس جمع من الأصدقاء، يلعبون الورق، فتعد لهم فيليسيتيه قبل حضورهم، ما يلزم من ورق، وتهيئ لهم مدافئ خاصة بالمائدة، كانوا يفدون في تمام الثامنة، وينصرفون قبل أن ندق الساعة الحادية عشرة.

وفي صباح كل اثنين، ينشر تاجر الأمتعة العتيقة، الذي يقيم تحت رواق

الدار، ما عنده من قطع الحديد على الأرض، ثم تأخذ المدينة في الصخب، وتمتلئ بعجيج الأصوات، يختلط فيها صهيل الخيل، بثغاء الغنم، وقيوع الخنازير، إلى جانب قرقعة العربات في الطريق، وقبيل الظهر، وبينما السوق على أشده حركة وضوضاء، يقف بباب البيت فلاح عجوز، طويل القامة، طرح قبعته إلى الخلف، فظهر أنفه الأعقف، ذلك هو "روبلان" المشرف على مزرعة "جيفوس"، وما هي إلا لحظات، ثم يحضر "ليبار" القائم على مزرعة "توك"، وهو صغير الجسم، أحمر البشرة، بارز البطن، يرتدي سترة رمادية اللون، وينتعل حذاء له رقبة وبه مهمازان.

يقدم كل منهما إلى صاحبة الأرض دجاجا وجبنا، وما كان ليغيب عن الخادمة "فيليسيتية" خبث الرجلين وتحايلهما، وكانا يحسبان لها عند انصرافهما كل حساب.

وبين الحين والحين، تستقبل مدام أوبان عما لها، يدعي المركيز دي "جريمانفيل"، ضاعت ثروته كلها في المجون ومعاقرة الخمر وهو يقيم في "فاليز"، على آخر قطعة من الأرض بقيت له من ممتلكاته، وكان يحضر دائما في ساعة الغداء، يصحبه كلب أوبر قبيح المنظر، يلوث بأرجله كل أثاث البيت، ومع أن الماركيز كان يحاول جاهدا أن يحافظ على مظهر الأرستقراطية، حتى يلخلع قبعته كل مرة يقول فيها: "المرحوم أبي"، إلا أنه بالرغم من ذلك كان يعب الكأس إثر الكأس مدفوعا بعادة تعاطي الخمر، ويطلق في سكره، دعابات بذيئة، فتدفعه "فيليسيتية" إلى الخارج، في شئ من اللطف، قائلة له: " كفاك شربا يا سيدي "جريمانفيل"، فإلى مرة قادمة! ثم توصد الباب خلفه.

وكانت تستقبل في اغتباط السيد بوريه، المحامي القديم، وكان له في ربطة عنقه البيضاء، وفي صلته، وفي قبب قميصه، وفي سترته العريضة السمراء، وفي طريقة إستنشاقه السموط، عندما يلف ذراعه، كان له في كل مظهره، ما يلقي في نفس فيليسيتية، هذا الاضطراب الذي نستشعره، إذا نظرنا إلى رجل يخالف سائر الرجال.

ولما كان مسيو "بوريه" يدير أملاك "سيدتها" فهو يقضي معها ساعات على إنفراد في مكتب "صاحب البيت"، يبدي دائما مخاوفه من أن تمس سمعته، ويعبر عن بالغ احترامه للقضاء، ويتشدق أحيانا باللغة اللاتينية.

ورأى أن يتعلم الطفلان بطريقة مشوقة، فأهدى إليهما كتابا جغرافيا مصورا، يضم بين صفحاته مشاهد مختلفة من أنحاء العالم: تمثل صورة أكلة اللحوم البشرية، وقد كسا الريش رؤوسهم، تمثل صورة أخرى قردا يخطف فتاة، أو بعض أهل البدو في الصحراء، أو قوما يصيدون حوتا بواسطة الحراب، وصورا أخرى غيرها.

شرح بول مضمون هذه الصور لفيليسيتيه، وكان ذلك في الواقع كل ما تلقته من ثقافة علمية.

أما الولدان، فأشرف على تعليمهما شخص يدعى "جيو"، وهو مستخدم بسيط يعمل في دار الحكومه، عرف بجمال يديه، وكان من عادته أن يمسك بمطواه، ويمررها على رقبة حذائه.

وحينما يكون الجو صحوا، تقصد الأسرة إلى مزرعة "جيفوس"، في ساعة مبكرة من الصباح.

وفناء المزرعة منحدر، يقوم المنزل في وسطه، ويبدو البحر من بعيد كبقعة رمادية اللون.

وتخرج فيليسيتيه من سلتها، شرائح من اللحم البارد، ويتناول الجميع لعامهم في بيت ملحق بمصنع الألبان، وكان ذلك البيت هو البقية الباقية من قصر ريفي، لم يعد له الآن أي أثر، ويضطرب ورق الجدران المهلهل ويهتز في مهب الريح، وتطرق مدام أوبان رازحة تحت عبء الذكريات، ويقف الطفلان أما مهما لا يقويان على الكلام، فتقول لهما: "إذهبا والعبا!" فينطلقان إلى الخارج.

يصعد بول إلى مخزن الغلال، يصيد العصافير، ويقذف الحجارة لترتد متواثبة على سطح البركة، أو يقرع بالعصا الدنان الضخمة فترن كالطبول.

وتقدم فرجيني الطعام إلى الأرانب، أو تجري لتقطف أزهار الترنجان، فتكشف سرعة ساقيها عن سروالها الصغير المطرَز.

وفي مساء يوم من أيام الخريف، رجعت الأسرة، وأخذت في عودتها طريق المروج.

كان القمر في ربعه الأول، يضئ شطرا من السماء، والضباب يرفرف كالوشاح فوق منحنيات نهر "التوك"، وقد ربض قطيع من الثيران وسط العشب، وأخذت تتطلع إل هؤلاء الأربعة وهم يمرون بها، وفي المرعى الثالث هبت ثلاثة من الثيران وقفت أمامهم على هيئة دائرة، فقالت فيليسيتيه: "لا تخشوا شيئا!"، ثم غمغمت نوعا من الأغاني العاطفية، وأخذت تربت على ظهر الثور القريب، فاستدار وتبعه الثوران الآخران، ولكن لم يكد يجتاز

أصحابنا المرج التالي، حتى طرق سمعهم خوار مفزع، وإذا بثور كان الضباب يحجبه، يتقدم نحو المرأتين، فهمت مدام أوبان بالجري، فقالت فيليسيتية: "لا! لا! لا تسرعي!" ولكنهما مع ذلك عجلتا في خطوهما، وهما تسمعان من خلفهما صوت أنفاس قوية تدنو منهما، وكانت حوافر الثور تضرب العشب كالمطارق، ثم إذا به يعدو. فتلفتت فيليسيتيه، وأخذت تنتزع بكلتا يديها قطعا من الطين، تقذف بها عيني الثور، فينكس رأسه ويهز قرنيه، ويخور حورا مرعبا، وهو ينتفض غيظا. ووقفت مدام أوبان مع طفليها في طرف المرج، وقد تملكها الذعر، وأخذت تبحث عن وسيلة تعبر بها الخندق، وفيليسيتيه تواصل ارتدادها أمام الثور، ولا تنفك ترميه بحزم من العشب تعشي بصره، وهي تصيح "اسرعوا، اسرعوا!".

هبطت مدام أوبان إلى الخندق، دفعت فرجيني إلى أعلى، ثم دفعت بول وأخذت هي بدورها ترتقي المنحدر، فسقطت المرة تلو المرة، وبعد لأي شديد، وصلت إلى الجانب الآخر من الخندق.

ضيق الثورة الخناق على فيليسيتية، وحصرها بين السياج، وتطاير الزبد من شدقيه على وجهها، ولم تكن هناك غير ثانية واحدة وينقض عليها فيبقرها، وفي تلك اللحظة تماما، انسلت فيليسيتيه بين قضيبين من السياج، بينما جمد الحيوان الضخم في مكانه واجما مدهوشا.

ظلت بون ليفيك تتحدث عن هذه الواقعة، سنوات طوالا، دون أن يعرف الزهو سبيله إلى قلب "فيليسيتيه"، بل ربما لم يخطر ببالها أنها أتت عملا من أعمال البطولة.

كان همها منصرفا إلى فرجيني، وقد أصيبت الطفلة بمرض عصبي على أثر ما انتابها من فزع، نصح لها السيد "بوبار" الطبيب بحمامات البحر في "تروفيل".

ولم تكن حمامات "تروفيل" مطروقة في ذلك الوقت، فأخذت مدام أوبان تجمع المعلومات، واستطلعت رأي السيد "بوريه" ثم أعدت عدتها كأنما هي مقبلة على سفر طويل.

رحلت حقائبها ليلة السفر على عربة "ليبار" وفي اليوم التالي، أعد لها "ليبار" حصانين، كان على ظهر أحدهما سرج خاص بالنساء، به مسند من المخمل، وعلى عجز الثاني معطف مطوي على هيئة مقعد، ركبت مدام أوبان خلف "ليبار"، وتكفلت "فيليسيتيه" بعربة "فرجيني"، أما بول فقد ركب حمار مسيو "ليشابتو" الذي رضي أن يعيرهم إياه، على شريطة أن يعنوا به عناية تامة.

كان الطريق وعرا، والمسافة لا تزيد عن ثمانية كيلو مترات، قطعها الركب في ساعتين، كانت الخيل تغوص في الطين حتى ركبتيها، ثم تنتفض أردافها بشدة لتخرج منه، أو تسير في المجرة التي تركتها العجلات في الوحل، وفي بعض الأحيان كانت تضطر إلى الوثب. وكان فرس ليبار تتوقف فجأة في بعض الأماكن، فينتظر صابرا حتى تعود إلى مواصلة سيرها، وخلال تلك الفترات كان يتحدث عن أصحاب الأملاك الواقعة على الطريق، ويعلق على ما يرويه عنهم بفكرة أو رأي في فلسفة الأخلاق، فإذا ما وصلوا إلى قلب البلدة في "توك"، ومروا ببعض النوافذ التي تحوطها أزهار الجيرانيوم، هز كتفيه وقال: "ها هي ذي سيدة تدعى مدام "لوهوسَيه"، لو أنها بدلا من أن تتزوج شابا. .. "ولم يصل آخر الجملة إلى سمع فيليسيتيه وكانت الخيل

تخب والحمار يعدو، ودلف الجميع إلى طريق ضيق، ودار باب في السور، وظهر غلامان، ثم نزل المسافرون أمام ماء الروث، عند عتبة الباب نفسها.

أفاضت أم ليبيار في مظاهر الابتهاج عندما رأت سيدتها، وقدمت لها غداء يحتوي على شريحة لحم بقري من بين الكليتين، وعلى عصل وفصيد ودجاج محمر، وعصير تفاح معتق، وفطيرة بالفاكهة المطهوة، وبرقوق ممزوج بعصير العنب، وهي ترفق كل ذلك بالأطراء على سيدتها، فهي تبدو على أحسن حال من الصحة، وعلى "الآنسة" التي أصبحت "رائعة"، وعلى السيد بول الذي صار "بدينا"، ولم تنس أن تذكر جديهما "المرحومين"، فقد عرفهما آل ليبيار الذين خدموا الأسرة من أجيال عديدة، وتحمل المزرعة، كما يحمل سكانها، طابع القدم، فألواح الخشب في السقف متآكلة، والجدران مسودة من الدخان، والبلاط مغطى بالتراب، وتكدست فوق خوان من خشب البلوط كل أنواع الآنية، فترى أباريق، وصحافا، وطاسات من القصدير، وفخاخا لصيد الذئاب، ومقاريض لجز الغنم، وقد ضحك الأطفال كثيرا عندما وقع نظرهم من بين تلك الأشياء على حقنة ضخمة ولم يكن في الأفنية الثلاثة شجرة لم ينبت عند قاعدتها عش الغراب، أو في غصونها حزمة من بنات الدبق، وقد أسقطت الريح كثيرا من الأشجار فنمت من جديد، مبتدئة من وسطها، وكانت كلها ماثلة تنوء تحت ثقل تفاحها الكثير. أما أسطح القش التي تختلف في سمكها، وتبد وكأنها من المخمل الأسمر، فقد صمدت لأشد العواصف، ولكن حظيرة العربات تهاوت وتحطمت، ووعدت مدام أوبان بإجراء اللازم، ثم أمرت بإعادة السروج إلى الدواب.

وصل الركب إلى "تروفيل" بعد نصف ساعة، وهنالك ترجلوا ليعبروا صخرة "الإبكور" التي تطل على بعض السفن، وتقدموا مسيرة ثلاث دقائق،

حتى بلغوا نهاية الرصيف، ثم دلفوا إلى فناء فندق "الحمل الذهبي"، الذي تديره الأم "دافيد".

أحست فرجيني، منذ الأيام الأولى، تحسنا في صحتها، نتيجة تغيير الهواء، وتأثير الحمامات، ولم يكن لدي فرجيني ثوب حمام خاص، فكانت تستحم وهي بقميصها، ثم تساعدها خادمتها على لبس ثيابها، وكان هنالك كوخ لأحد رجال الجمرك، يستعمله المستحمون لهذا الغرض.

وكانوا يذهبون بعد الظهر، والحمار معهم، إلى ما وراء الصخور السوداء، من ناحية هانكفيل، والطريق هناك يأخذ أولا في الصعود بين أراض متدرجة تشبه سطح الروض الأخضر، ثم يصل إلى هضبة تجمع بين المراعي والحقول، وفي طرف الطريق، بين شجيرات الشوك المتشابكة ترتفع أشجار الآس البري، وهنا وهناك تقع العين على شجرة ضخمة انقطعت الحياة عنها، ترسم غصونها على صفحة الفضاء الأزرق، خطوطا متعرجة.

وما أكثر ما يستريحون في أحد المروج، فترى مدينة "دوفيل" عن يسارهم، و "الهافر" على يمينهم، والبحر يمتد أمامهم، متألقا تحت ضوء الشمس، أملس كالمرآة، هادئا حتى لا تكاد تسمع لخرير مياهه صوتا، والعصافير تزقزق مختبئة، وتلف ذلك كله رقعة السماء المترامية. وكانت مدام أوبان تنشغل بالحياكة وهي جالسة، بينما تقوم فرجيني بتضفير أعواد الخيزران بجوارها، وفيليسيتيه تقتلع أزهار اللافندا، أما بول فكان يتولاه الضجر، ولا ينفك يبدي رغبته في الرحيل.

ويعبرون أحيانا نهر التوك في قارب، ليجمعوا القواقع وكانت الأمواج في

مدها وجزرها تترك على الشاطئ بعضا من حيوان البحر كالقنفد والهلام، ويسرع الطفلان نحوهما ليمسكا بندف الزبد، فتذهب به الريح، وتتساقط الأمواج مستسلمة إلى الرمال، فتنتشر على امتداد الشاطئ، وكان الشاطئ يترامى على مدى البصر، بينما يتاخمه من ناحية الأرض كثبان الرمل، تفصل بينه وبين "الماريه"، وهو مرج واسع على هيئة ملعب للخيل، وإذا عادوا من هذا الطريق، بدت لهم "تروفيل" على سفح الرابية، آخذة في الكبر تدريجيا ثم تتضح منازلها غير المتساوية، فتظهر المدينة كأنما قد تفتحت في فوضى تنطوي على البهجة.

وفي أيام القيظ الشديد لا يبرحون غرفتهم، وينصب النور الباهر على النوافذ من الخارج، فتنسل خطوط من الضوء من بين مصاريعها، وفي القرية لا يسمع صوت، وفي الطريق لا يرى أحد على الطوار، وهذا السكوت المنتشر يضاعف السكينة والهدوء. ومن بعيد، تأتي أصوات المطارق في أيدي عمال قلفطة السفن، وهم يسدون الشقوق في غواطسها، وتهب ريح ثقيلة تحمل رائحة القار.

وكانت أهم تسلية لديهم مشاهدة القوارب وهي راجعة تجتاز علامات الخطر، ثم تأخذ في المراوغة يمنة ويسرة، وقد أنزلت أشرعتها حتى ثلثي سواريها، وانتفخ شراع صاريها الأمامي كالمنطاد، بينما تتقدم هي منسابة بين الأمواج المتلاطمة، حتى تصل إلى منتصف الميناء، فتلقي بغتة مراسيها، وتأخذ مكانها على جانب الرصيف. ويقذف البحارة من فوق جدران السفن أسماكها حية تضطرب، فتتلقفها صفوف العربات المنتظرة، وتسرع بعض النسوة، وعلى رؤوسهن طواق من القطن، فيتناولن السلال، ويقبلن أزواجهن.

وذات يوم، دنت إحداهن من فيليسيتيه وحادثتها، وعادت الخادمة بعد ذلك إلى حجرتها جذلة فرحة، فقد عثرت على شقيقة لها، هي "ناستازيا باريت" زوجة المدعو "لارو"، وما لبثت أن جاءت ناستازيا تحمل رضيعا على صدرها، وتمسك بيدها اليمنى طفلا آخر، ووقف عن يسارها صبي بحار، في مظهره تبجح، وضع قبضتيه على ردفيه، وأمال قلنسوته على أذنه.

صرفتهم مدام أوبان ولما ينقض على وصولهم ربع ساعة.

وصاروا يلتقون دائما بالقرب من المطبخ، أو عندما تخرج مدام أوبان في نزهة مع أسرتها، على أن زوج ناستازيا لم يحضر معها إطلاقا.

تعلقت فيليسيتيه بهم، فاشترت لهم أكسية وقمصانه، وموقدا، وكان واضحا أنهم يستغلون طيبتها، وضايق هذا العطف مدام أوبان، وما كانت لترضى عن تصرفات ابن ناستازيا الذي سمح لنفسه يرفع الكلفة مع ابنها بول، فكان يخاطبه مخاطبة الند للند، ولم تكد مدام أوبان تجد أن السعال قد اشتد على فرچيني، وأن الموسم لم يعد صالحا، حتى شدت رحالها عائدة إلى بون ليفيك.

وساعدها السيد "بوريه" على اختيار مدرسة لابنها، وكانت مدرسة "تاين" معروفة بأنها من خير المدارس، فألحق بها بول، وقد أبدى شجاعة حين ودَع أسرته، راضيا عن حياته الجديدة، في بيت سوف يجد فيه أقرانا له.

وقبلت مدام أوبان مضطرة أن يبتعد عنها ابنها، فذلك أمر لا مناص منه، أما فرچيني، فسرعان ما سلت أخاها شيئا فشيئا. وأما فيليسيتيه فقد نحن إلى ضجيجه وجلبته، ولكن أمرا جديدا شغلها، إذ أنها أخذت بعد انقضاء عيد الميلاد، تصطحب الطفلة الصغيرة كل يوم إلى دروس الدين.

(٣)

تركع فيليسيتيه ركعة ثم تدلف إلى بهو الكنيسة العالي، تسير بين صفي المقاعد حتى تصل إلى المقعد المخصص لمدام أوبان، فتستقر عنده، ثم تجلس وتجيل بصرها فيما حولها.

لقد شغل الفتية عن يمينها، والفتيات عن يسارها، كل المقاعد المعدة لفرقة الترتيل، ووقف الكاهن على مقربة من المنصة، وعلى نافذة زجاجية في صدر الكنيسة نقشت صورة العذراء تعلوها الروح القدس، وعلى نافذة أخرى، ترى العذراء وهي جاثية أمام يسوع الطفل، وخلف الهيكل، مجموعة خشبية تصور القديس ميخائيل وهو يصرع التنين.

بدأ الكاهن يُسمع الحاضرين موجزا من التاريخ المقدس، فتمثلت لخيال فيليسيتيه صورة الفردوس والطوفان، وبرج بابل، ورأت المدن تأكلها ألسنة اللهب، والشعوب وهي تحتضر، والأصنام تنهار، وقد بهرها ذلك كله، وملأ قلبها خشوعا لرب السموات، ورهبة من غضبه، ثم أخذت تستمع إلى قصة آلام المسيح، وتساءلت: لماذا صلبوه؟ لقد كان يحب الأطفال، ويطعم الجماهير، ويرد البصر للعميان، حتى شاء من فرط رقته أن يولد بين الفقرا، على دمنة في مذود للبقر. إن كل ما ورد في الإنجيل من مشاهد بذر الحبوب، وحصد القمح، وعصر العنب، مألوف لديها، وقد أضفى الرب على هذه المشاهد قداسة، فازداد حب فيليسيتيه للحملان، من أجل "الحمل الإلهي"، وللحمام من أجل "الروح المقدس".

ولم يكن يسير عليها أن تتصور حقيقة الروح القدس، فليس هو طائرا فحسب، إنما هو نار أيضا. ونفثة أحيانا، ولعل نوره هو ذلك النور الذي ينتشر في غضون الليل، فينسكب على شواطئ البرك. وربما كانت أنفاسه هي التي تدفع السحب أمامها، وكان صوته هو ذلك النغم، وتلك الموسيقى، يبعثهما رنين الأجراس، وتظل فيليسيتيه على هذه الحالة من الخشوع والتعبد، تستمتع برطوبة الجدران، وهدوء الكنيسة.

أما العقائد فلم تكن تفهم منها شيئا، بل لم تحاول أن تفهم شيئا، كان الكاهن يعظ والصبية يرددون من ورائه، بينما تأخذها سنة من النوم، حتى إذا انصرفوا، وسمعت وقع نعالهم على البلاط، استيقظت فجأة.

وعلى هذا النحو، تعلمت مبادئ الدين، لكثرة ما تردد في سمعها، بعد أن حرمت في صباها من التربية الدينية، ومن ثم أخذت تقلد فرجيني في كل ما تمارس من فروض، فكانت تصوم مثلها، وتعترف مثلها، وإذا جاء عيد الرب صنعا مذبحا لزياح القربان.

ونزل بفيليسيتيه هم ثقيل، عندما حان اليوم الذي تشترك فيه فرچيني للمرة الأولى في تناول القربان، كانت رجفة تسري في أوصالها وهي تعد لها حذاءها وتجهز لها مسبحتها، وكتابها وقفازها، ويضطرب جسمها كله وهي تعاون مدام أوبان على إلباس ابنتها.

وظلت طوال القداس وهي في أشد حالات القلق! كان السيد بوريه يحجب عنها جانبا من جوقة الترتيل، ولكن جماعة العذارى كانت بادية أمامها فأكاليلهن البيضاء ونقبهن المسدلة، فكان منظرهن أشبه بحقل من الثلوج

الناصعة، ورأت من بينهن صغيرتها العزيزة. وقد عرفتها عن بُعد بعنقها الدقيق ووقفتها الخاشعة، ثم رنَت دقات الناقوس، وانحنت الرؤوس، وران السكوت، وارتفعت ألحان الأرغن، وأصوات المرتلين والحاضرين، بتسبيحة "يا حمل الله" ثم أخذ موكب الفتية يتقدم، ونهضت الفتيات من ورائهم، يسرن خطوة خطوة، تضم كل واحدة منهن يديها، ويتجهن إلى الهيكل، ثم يركعن على أول الدرج، ويتناولن القربان، واحدة بعد أخرى، ثم يقفلن رجعات، في نفس النظام، إلى مراكعهن. ولما جاء دور فرچيني، مالت فيليسيتيه بجسمها لتتمكن من رؤيتها، وطاف بذهنها خيال لا يصدر إلا عن عاطفة خالصة صادقة، فتصورت نفسها أنها هي تلك الفتاة الصغيرة، وأن هذا الوجه وجهها، وهذا الثوب ثوبها، بل راح قلبها ينبض في صدرها، كأنما هي المقبلة على المائدة المقدسة، وأطبقت جفنيها، وهمت بفتح فمها، وكاد أن يغشى عليها.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، تقدمت إلى الهيكل لتناول القربان المقدس من الكاهن، وتم لها ما أرادت وهي خاشعة ورعة، ولكنها لم تنعم باللذة نفسها التي استشعرتها بالأمس.

أرادت مدام أوبان أن تكتمل تربية ابنتها، ولما كان "جيو" عاجزا عن تلقينها اللغة الإنجليزية والموسيقى فقد عزمت على أن تلحقها بالقسم الداخلي عند راهبات "الأورسيلين" في "هونفلور".

لم تبد الفتاة أي اعتراض، وغشيت الحسرة قلب فيليسيتيه، واتهمت مدام أوبان بالقسوة، ثم فكرت أن سيدتها قد تكون على حق فيما عزمت عليه، ومثل هذه الأمور يجاوز حد منطقها هي ويعلو على تفكيرها.

وجاء يوم الرحيل، ووقفت بباب الدار غربة قديمة، نزلت منها راهبة حضرت لتصطحب "الآنسة"، ورفعت فيليسيتيه الأمتعة إلى سطح العربة، وألحَت على السائق بتوصياتها، ثم وضعت في الصندوق ستة "برطمانات" من المربى، وما يقرب من اثنتى عشرة ثمرة من الكمثرى، ومعها باقة من زهر البنفسج.

وفي اللحظة الأخيرة، بكت فرجيني بكاء شديدا، وانهالت على أمها تقبلها في جبينها، وهي تردد قائلة: "هيا تشجعي! تشجعي!" ثم رفع سلم العربة، فانطلقت بمن فيها.

وعندئذ خارت قوى مدام أوبان، وفي المساء وفد عليها جميع أصدقائها، جاءت أسرة "لورمو" ومدام "ليشابتوا"، وهؤلاء الآنسات من أسرة "روشفوي" والسيد "دي هوبڤيل"، و "بوريه"، جاءوا جميعا يواسونها.

أحست في أول الأمر ألما شديدا يعصر قلبها من فراق ابنتها، ولكنها كانت تتسلم رسالة منها ثلاث مرات كل أسبوع، وكانت تكتب لها هي في الأيام الأخرى، أو تنزل للتجول في حديقتها، أو تقرأ شيئا، وعلى هذا النحو استطاعت أن تملأ فراغ وقتها.

وفي الصباح تدخل فيليسيتيه إلى غرفة فرجيني، كما اعتادت أن تفعل، ثم تتطلع إلى الجدران، فتستشعر وحشة وضيقا، فهي لن تمشط بعد اليوم شعر الطفلة، ولن تعقد لها رباط حذائها، أو تحكم غطاء سريرها بعد أن تسلمها للرقاد، ولن ترى طوال النهار وجهها الوسيم، ولن تمسك بيدها، كما كانت تفعل إذا خرجتا معا، وفي وسط هذا الفراغ، حاولت جهدها أن تشتغل قطعة من "الدنتلا" فكانت أصابعها الثقيلة تقطع الخيط، وما كانت لتتقن

شيئا، وقد فارقها النوم، وأصبحت على حد تعبيرها "فانية".

واستأذنت فيليسيتيه مدام أوبان في أن يزورها ابن أختها فكتور ليسري عنها همها.

فكان يحضر يوم الأحد بعد القداس، مورد الخدين، عاري الصدر، بعبق برائحة الحقول التي مر بها، فتمد له فيليسيتيه المائدة في الحال، ويطعمان معا، وهو جالس أمامها، تقتر هي فيما تأكل قدر ما تستطيع، رغبة في الاقتصاد، بينما تلح عليه في أن يتناول كفايته من الطعام، وتظل تقدم له منه حتى يستشعر التخمة، فيغلبه النعاس. فإذا دقت نواقيس الصلاة عصرا، أيقظته، ونظفت له بالفرجون سرواله، عقدت له ربطة وعنقه، وذهبت به إلى الكنيسة، مستندة إلى ذراعه، تزهو به كما تزهو الأم بابنها.

كان والده يكلفانه دائما أن يحصل منها على شئ: على صرة من السكر المكرر، أو على بعض قطع الصابون، أو على قدر من الخمر، بل كانا أحيانا يطمعان منها في مبلغ من المال، وكان يحضر معه ثيابه الممزقة لترتقها له، فتقبل على هذا العمل راضية، سعيدة بما أتيح لها من فرصة تضطره إلى التردد عليها.

وفي شهر أغسطس اصطحبه أبوه ليعمل ملاحا على إحدى السفن التي تطوف بالساحل.

وعزَاها في فراقة، أن عاد بول وعادت فرجيني مع حلول العطلة المدرسية، غير أن بول أصبح فتى له نزواته، وتجاوزت فرجيني السن التي تسمح لفليستيه بمخاطبتها في ود ودون كلفة، فأحست بالحرج.

وشعرت بقيام حاجز بينها وبين ابنة سيدتها.

سافر فكتور بالتوالي إلى "مورلي" وإلى "دنكرك" ثم إلى "بريتون" وكان يقدم لفيلستيه هدية عند عودته من كل رحلة، كانت الهدية في المرة الأولى صندوقا من القواقع، وفي المرة الثانية فنجانا للقهوة، ثم أهداها في الثالثة فطيرة على صورة رجل، مصنوعة من دقيق القمح والعسل.

لقد أصبح فكتور شابا وسيما، ممشوق القدر، ذا شارب خفيف، له عينان تشعان طيبة وصراحة، يلبس قبعة من الجلد، يطرحها في مؤخرة رأسه، شأن البحارة، وكانت خالته تسر بما يرويه لها من قصص، يمزجها بمصطلحات بحرية.

وفي يوم الإثنين الرابع عشر من شهر يوليو ١٨١٩ – وهو تاريخ لم تنسه فيليسيتيه – أبلغها فكتور أنه مضطر إلى سفر طويل، وأنه بعد ليلتين، سوف يبحر من "هونفلور" ليلحق بمركبه الذي سيغادر قريبا ميناء "الهافر" وقد تمتد رحلته إلى عامين.

نزل بفيليسيتيه حزن ثقيل، وهي تفكر في هذه الغيبة الطويلة، ثم أرادت أن تودعه فانتظرت حتى حل مساء الأربعاء فإذا انتهت سيدتها من عشائها، لبست حذاء ذا نعل خشبي، وتحاملت على نفسها، وراحت تقطع الفراسخ الأربعة التي تفصل بين "بون ليفيك" و "هونفلور".

ووصلت أمام الصليب القائم فوق المرتفع، وبدلا من أن تسلك الطريق عن يسارها، سارت عن يمينها، فضلت بين مصانع السفن، ثم عادت أدراجها وسألت قوما قابلتهم فأشاروا عليها بالإسراع. دارت حول الحوض الممتلئ بالسفن، واصطدمت بالمراسي، ثم نظرت فإذا الأرض تهبط، والأنوار يختلط بعضها ببعض، وحينما رأت خيولا تعلق في السماء، ظنت في نفسها الخيل.

وعلى جانب الرصيف، وقفت جياد أخرى، تصهل مرتاعة من مشهد البحر، وكانت رافعة تحملها لتهبط بها إلى السفينة، وكان المسافرون على سطح المركب يرتطمون بدنان عصير التفاح، وسلة الجبن، وأكياس الحبوب وعلا صياح الدجاج، وأخذ ربان السفينة يسخط ويلعن، بينما وقف غلام بحار، متكئا على عارضة المرساة، لا يعبأ بما يدور حوله، ولم تعرفه فيليسيتيه وأخذت تنادي: "فكتور!"، فرفع رأسه، وهرعت هي نحوه، وفي هذه اللحظة رفع السلم فجأة.

وخرجت السفينة من الميناء، تسحبها النسوة وهن يغنين لها، وكان يسمع لهيكلها جلبة وقعقة، والأمواج الثقيلة تضرب مقدمها، وقد استدار الشراع فلم يعد يبين أحدا، وانسكب ضوء القمر على البحر فصبغه بلون فضي، وبدت السفينة على سطحه كبقعة سوداء، أخذت تبهت شيئا فشيئا، إلى أن غابت في عرض البحر ثم اختفت عن الأنظار.

ومرت فيليسيتيه، في عودتها، على مقربة من الصليب، وأرادت أن تعهد إلى الله بأعز ما كان لديها، فصلت طويلا وهي واقفة، ووجهها سابح في دموعها، وعيناها عالقتان بالسحب، وكانت المدينة تغط في النوم، لا يرى غير حرسي الجمرك وهم يتجولون، والماء يتساقط دون انقطاع من فتحات السد في صوت أشبه بصوت السيول، ودقت الساعة الثانية.

إن حجرة الاستقبال في مدرسة الراهبات، لا تفتح قبل طلوع النهار، ولا شك في أن تأخرها سوف يغضب سيدتها، وبالرغم من رغبتها في تقبيل فرجيني، فقد قررت العودة إلى بون ليفيك، ولما وصلت إليها، كانت فتيات الفندق، قد أخذن يستيقظن من نومهن.

وهكذا سيظل الفتى المسكين شهورا طويلة يطوف البحار، إن رحلاته السابقة لم تكن تخيفها فالعودة كانت مضمونة من إنجلترا وبريطانيا، أما أمريكا والمستعمرات والجزر، فكل ذلك ضائع في بقاع مجهولة تقع في الجانب الآخر من العالم.

ومنذ ذلك اليوم لم تعد فيليسيتيه تفكر إلا في ابن أختها، ففي الأيام التي تشتد فيها الشمس، تقاسي هي من الظمأ، وإذا هبت زوبعة، خشيت على ابن أختها من الصاعقة، وإذا سمعت الريح تصفر في المدفأة وتقتلع الحجارة، تصورت فكتور وقد عصفت به نفس العاصفة، وهو معلق فوق صار يكاد ينكسر، وكل جسمه ملقى إلى الخلف، تحت وابل من الزبد، أو تعاودها ذكريات من كتاب الجغرافيا المصور، فترى ابن أختها وقد أفترسه أكلة لحوم البشر، أو وقع في غابة بين القرود، أو تراه يحتضر على ساحل قفر مترامي الأطراف، ولكنها لم تكن تتحدث إطلاقا عن مخاوفها وهمومها.

وكانت لمدام أوبان بدورها مخاوفها وهمومها بخصوص ابنتها.

رأت راهبات المدرسة أن الطفلة مرهفة الحس ولكنها معتلة الجسم، حتى أن أعصابها لتثور لأقل انفعال، مما اضطر فرجيني أن تترك دروس البيان.

وكانت الأم قد طلبت من الدير أن يكتب لها بانتظام، وفي صباح يوم، لم يحضر ساعي البريد، فعيل صبرها، وطفقت تذرع الحجرة، متنقلة بين المقعد والنافذة، وقد بدا لها الأمر غريبا حقا، إذ انقضت أيام أربعة لم يصلها فيها أي خبر عن أبنتها!.

وأرادت فيليسيتيه أن تضرب لها من نفسها مثلا، لتدخل السكينة إلى نفسها، فقالت لها:

– "هأنذا يا سيدتي، لم أتلق أي نبأ منذ ستة شهور!. .."

وسألت مدام أوبان: "ممن تعنين ؟. ."

فأجابت فيليسيتيه في هدوء:

– "أقصد. .. من ابن أختي!".

هزت مدام أوبان كتفيها وقالت: "آه! ابن أختك!" ثم استمرت في تجولها، وكأنما تريد أن تقول: "إنه لم يخطر لي على بال! فضلا عن أن أمر لا يهمني! صبي ملاح! غلام صعلوك! يا له من أمر مضحك!. .. أما إبنتي. .. هلا فكرت!. .. "

لقد ألفت فيليسيتيه القسوة والعنف، ولكنها غضبت هذه المرة من سيدتها غير أنها سرعان ما نسيت.

كان يبدو لها طبيعيا أن تفقد سيدتها صوابها بسبب طفلتها.

كان للطفلين نفس المكانة عند فيليسيتيه، فهناك ركن في قلبها يحتويهما، ولابد أن يكون مصيرهما واحدا.

أبلغها الصيدلي أن سفينة فكتور وصلت إلى "هاڤانا"، لقد قرأ هذا الخبر في إحدى الصحف.

وتصورت فيليسيتيه أن " هافانا " – والإسم يطلق على لفائف الدخان – بلد لاهم لأهله إلا التدخين، وتمثلت فكتور وهو يتنقل بين الزنوج، تلفه سحابة من الدخان. وراحت تسأل نفسها، هل يستطيع إذا اضطره الأمر أن يعود بطريق البر؟ وترى ما المسافة بين هذا البلد وبون ليفيك، وأرادت أن تعرف الجواب، فسألت السيد "بوريه".

تناول السيد بوريه كراسة الخرائط، وأخذ يشرح لها خطوط الطول، وهو يبتسم ابتسامة المتقعر وفيليسيتيه تنظر إليه في ذهول، ثم تناول حامل قلمه، وأشار إلى نقطة سوداء، لا تكاد العين تراها، ضاعت بين خطوط متقاطعة، وسط نقطة بيضاوية الشكل، وقال: "ها هي ذي!" إنحنت فيليسيتيه على الخريطة، وتعبت عيناها وهي تحدق في هذه المحموعة من الخطوط الملونة، دون أن تفهم منها شيئا، وطلب منها السيد "بوريه" أن تفصح عما يحيرها، فرجته أن يظهرها على الدار التي يقيم فيها فكتور، فرفع السيد "بوريه" ذراعيه، وعطس، وأغرق في الضحك، فقد أثارت تلك السذاجة مرحه، وفيليسيتيه لا تدري للأمر سببا، ولعلها كانت تأمل أن ترى صورة ابن أختها، وما ذلك إلا لضيق فطنتها.

وانقضت خمسة عشر يوما، وجاء ليببار كما تعود أن يجئ ساعة السوق، ودلف إلى المطبخ، وسلمها خطابا مرسلا من زوج أختها، ولما كان كلاهما لا يحسن القراءة، فقد قصدت فيليسيتيه إلى سيدتها.

كانت مدام أوبان مشغولة بقطعة من النسيج صنعتها بالإبرة، أخذت تحصي عدد العقد فيها، فطرحتها جانبا وفضت الرسالة... ثم تنهدت، ونظرت إلى فيليسيتيه نظرة عميقة، وقالت في صوت خفيض.

"إنها لكارثه... تلك التي يخبرونك بها. إن ابن أختك...

لقد مات، ولم تذكر الرسالة شيئا غير ذلك.

تداعت فيليسيتيه فوق المقعد، وأسندت رأسها إلى الحائط، وأطبقت جفنيها، وقد احمرا فجأة، ثم أخذت تردد في صوت متقطع، وجبينها مطرق ويداها متهدلتان وعيناها جامدتان.

"يا للصبي المسكين! يا للصبي المسكين!".

وكان ليبار يتطلع إليها، وهو يتنهد ويتحسر، بينما سرت رعشه خفيفة في أوصال مدام أبوبان.

وعرضت عليها أن تذهب لزيارة أختها في "تروفيل"، فأجابت فيليسيتيه بإيماءة تدل على أنها ليست في حاجة إلى ذلك، وساد سكوت، ورأى صاحبنا ليبار أن من الخير أن ينسحب.

وقالت فيليسيتيه عندئذ:

"ليس الأمر ذا بال، بالنسبة لهم!".

وعادت فحنت رأسها، وأخذت ترفع من وقت لآخر، وبطريقة لا شعورية، الإبر الطويلة الموضوعة، فوق منضدة الشغل.

ومرت في الفناء بعض النسوة يحملن ثيابا مغسولة، يقطر منها الماء.

شاهدتهن فيليسيتيه من خلال زجاج النافذة، فتذكرت غسيلها،

وكانت قد صبت عليه الماء بالأمس، على أن تضربه وتعصره اليوم، فتركت المنزل وخرجت.

وكان لوح الغسيل والبرميل عند شاطئ نهر "التوك"، فالقت على الضفه مجموعة من القمصان، وشمرت عن ساعديها، وتناولت مضربها وكانت طرقاتها القوية يتردد صداها في الحدائق الأخرى المجاورة.

كانت المروج مقفرة، والريح تعصف بالنهر، وقد تدلت على صفحته من

بعيد حشائش طويلة، كأنها ضفائر جثث طافية، وكتمت فيليسيتيه ألمها، وتجلدت حتى أقبل المساء، ولكنها، ما كادت تلج إلى غرفتها حتى ارتمت فوق حشيتها، ودفنت في الوسادة وجهها، وأطبقت يديها على خديها، واستسلمت لأحزانها.

ومرت أيا طويلة. عرفت بعدها عن طريق ربان السفينة نفسه، الظروف التي لقي فيها فكتور حتفه، أصيب بالحمى الصفراه، ونقل إلى المستشفى، وأسرف الأطباء في قصد دمه، وكانوا أربعة يمسكون به، فقضى في الحال نحبه، وقال كبير الأطباء:

"حسنا! ها هو ذا آخر يموت!"

كان أهله يقسون عليه دائما، فآثرت فيليسيتيه ألا تراهم بعد اليوم، وهم بدورهم، لم يبدوا أية رغبة في ذلك، إما عن نسيان، أو عن جمود عاطفة كما هو الشأن عند رعاع الناس.

اشتد ضعف فرجيني.

وكان ما ينتابها من ضيق في التنفس، ومن سعال، وارتفاع مستمر في الحرارة، وتلون وجنتيها بلون الرخام، كان ذلك كله ينم عن داء دفين، وأوصى السيد "بوبار" بالإقامة فترة في "بروفانس".

واستقر رأي مدام أوبان على ذلك، ولولا خوفها من جو "بون ليفيك" لأعادت ابنتها في الحال إلى المنزل.

واتفقت مع شخص ممن يؤجرون العربات، أن يصحبها إلى الدير في

أيام الثلاثاء. كان في حديقة الدير سطح يكشف الناظر منه نهر السين، وكانت فرچيني تتنزه فيه مستندة إلى ذراع أمها، تسيران فوق أوراق الكروم المتساقطة وكانت الشمس أحيانا تخترق حجب الشمس. فتضطر فرچيني إلى إطباق جفنيها وهي تنظر إلى أشرعة القوارب من بعيد، وإلى الأفق كله من قصر "تنكارفيل" حتى منائر "الهافر". ثم تستريح الأم وابنتها تحت العريش، واقتنت الأم برميلا صغيرا من نبيذ مالاجا الممتاز، وكانت فرچيني تسقي منه جرعتين، لا أكثر، وهي تضحك لفكرة أنها قد تثمل.

استردت قواها، ومضى الخريف هادئا، وطمأنت فيليسيتيه مدام أوبان، ولكن حدث في مساء يوم أنها خرجت لقضاء مهمة بالقرب من المدينة، ولما عادت، وجدت عربة "السيد بوبار" تنتظر بالباب، ووقف بوبار في الردهة، وراحت مدام أوبان تعقد قبعتها، وهي تقول:

– "أعطيني مدفأة قدمي الصغيرة، وكيس نقودي، وقفازي، هيا أسرعي!".

أصابت فرچيني نزلة صدرية، وربما كانت حالتها تنذر بالخطر.

وقال الطبيب: "لم تفقد الأمل بعد!" وركب الاثنان العربة، تحت رضاب الثلوج المتساقطة، وقد أوشك الليل أن يأتي، وبلغت قسوة البرد أشدها.

هرولت فيليسيتيه إلى الكنيسة، وأوقدت شمعة، ثم جرت وراء العربة، ولحقت بها بعد ساعة، وقفزت من الخلف، بخفة، وأمسكت بالسجاف، وفي تلك اللحظة قفزت إلى ذهنها فكرة: "إنها لم تغلق فناء الدار، وقد يتسلل اللصوص إلى داخلها! "وهبطت من العربة.

وما أن لاح فجر الغد، حتى قصدت إلى منزل الطبيب، وقيل لها إنه سافر إلى الريف بعد عودته، فأقامت في الفندق، عسى أن يأتيها أحد من غير أهل البلدة برسالة، وانتظرت حتى طلع النهار، فأخذت العربة في طريقها إلى "ليزيو"

يقع الدير في طرف شارع ضيق وعر، وانسابت فيليسيتيه في الطريق، حتى إذا بلغت نصفه، سمعت أصواتا غريبة، كانت رنات أجراس حزينة، وقالت في نفسها:

"إن الأجراس تدق لغيرها!"، وجذبت فيليسيتيه مطرقة الباب بعنف.

ومرت دقائق عدة، ثم سمعت وقع خفين يقتربان في هون، ثم انفرج الباب قليلا، وظهرت إحدى الراهبات.

وقالت الراهبة الطيبة، والحزن يرتسم على وجهها: "لقد أسلمت الروح" وفي الوقت نفسه، ضاعفت أجراس" سان ليونار " دقاتها الحزينة.

وصلت فيليسيتيه إلى الطابق الثاني.

ومن عتبة الغرفة، لمحت فرچيني مسجاة على ظهرها، معقودة اليدين، فاغرة الفم، وقد ارتمى رأسها إلى الوراء، تحت صليب أسود يحنو عليها، بين ستائر جامدة لا تتحرك، شاحبة، ولكن ليست في شحوبة وجهها. وركعت مدام أوبان عند أسفل الفراش، تحتويه في ذراعيها، وهي تنشج وتنتحب. ووقفت رئيسة الدير إلى اليمين، وأوقدت ثلاثة شمعدانات فوق منضدة بجانب السرير، فبدت كأنها ثلاث نقط حمراء، ونشر الضباب على النوافذ غلالة بيضاء وتقدمت الراهبات وأخذن مدام أوبان.

أمضت فيليسيتيه ليلتين لم تغادر فيهما الطفلة الميتة، كانت تردد نفس الصلوات، وترش أغطية السرير بالماء المقدس، ثم تعود فتجلس، لتحدق النظر في فرجيني. وقد لاحظت في نهاية الليلة الأولى، أن الوجه قد غشيه اصفرار، وازرقت الشفتان، وانكمش الأنف، وغارت العينان، وراحت فيليسيتيه تمطرهما تقبيلا، ولو أن الميتة فتحت عينيها في تلك اللحظة، لما كانت دهشة فيليسيتيه كبيرة، فمثل هذه النفوس البسيطة لا ترى في حدوث المعجزات إلا أمرا عاديا. قامت فيليسيتيه بتزيينها، ثم أدرجتها في الكفن، وأودعتها تابوتها، وتوجت رأسها بأكليل، وفردت شعرها، وكان شعرها ذهبي اللون، بالغ الطول، لا يتناسب طوله مع سنها. قصت فيليسيتيه خصلة كبيرة منه، ودست نصفها في صدرها، عازمة على الاحتفاظ بها أبد الدهر.

ونقل الجثمان إلى "بون ليفيك"، تنفيذا لأوامر مدام أوبان، الي تبعت عربة الموتى، داخل مركبة مغلقة.

وبعد الصلاة، اتجه الموكب شطر المدافن، واستغرق حتى وصوله ثلاثة أرباع الساعة، وسار بول في المقدمة وهو ينقحب، وجاء من بعده السيد بوريه، فكبار القوم من أهل المدينة، وفي آخر الموكب مشت فيليسيتيه، وكانت تفكر في ابن أختها، الذي لم يلق مثل هذا التكريم، وزادت حزنا على حزن، فقد خيل لها أنها تشيعه الآن مع "الأخرى".

لم تعرف مدام أوبان ليأسها حدا.

ثارت أول ما ثارت على الله، واتهمته بالظلم، لأنه انتزع منها ابنتها.. وهي التي لم تقترف شرا إطلاقا، وكانت صافية الضمير طاهرة الذيل! ثم تعود

فتفكر: كان يجب أن تذهب بها إلى الجنوب، وتعرضها على أطباء آخرين، ربما أنقذوها! وراحت تتهم نفسها، وتتمنى أن تلحق بإبنتها. وكانت في نومها تصرخ حسرة وألما، ولازمتها رؤيا بعينها، رأت زوجها يرتدي زي بحار، وقد عاد من رحلة طويلة، يقول لها باكيا، إنه أمر باصطحاب فرجيني، ثم رأتهما يتشاوران للبحث عن مكان يختبئان فيه.

وعادت مرة من الحديقة، وهي تنتفض مذعورة مضطربة، فمنذ لحظة، وفي مكان – كانت تشير إليه – ظهر لها زوجها وابنته، جنبا إلى جنب، لا يفعلان شيئا، وإنما ينظران إليها.

ولزمت غرفتها لا تتحرك منها، شهورا طويلة، وفيليسيتيه تقدم النصح لها، في رقة وهدوء، تقول لها إن من واجبها أن ترعى نفسها، من أجل إبنها، ومن أجل ذكراها "هي".

فتقول مدام أوبان، وكأنها تستيقظ من نومها :

– هي؟.. آه! نعم! نعم!... أنت لا تنسينها! وهي تشير بذلك إلى المقابر التي حظر عليها بشدة أن تزورها، بينما كانت فيليسيتيه لا تنقطع يوما عن الذهاب إليها.

ففي تمام الساعة الرابعة، تأخذ فيليسيتيه طريقها في محازاة المنازل، ثم ترتقي بالربوة، وتفتح السياج، وتصل أمام قبر فرجيني، ويتكون القبر من عمود صغير، رخامه وردي اللون، في أسفله بلاطة، تحف به حديقة صغيرة، وتحوطه السلاسل، وتغطي الأزهار أحواض الحديقة تماما، وكانت فيليسيتيه تسقي الأوراق، وتجدد الرمل، وهي راكعة على ركبتيها، لتتمكن من الأرض فتحسن

عزقها. ولما استردت مدام أوبان قواها، واستطاعت أن تزور المقبرة، نزل بقلبها شئ من الارتياح ونوع من العزاء.

ثم توالت السنون، رتيبة متشابهة، لا يتخللها من الأحداث، إلا تعاقب الأعياد، عيد الفصح، وعيد العذراء، عيد جميع القديسين. ووقعت بعض أمور عائلية، أصبحت فيما بعد تواريخ يرجع إليها: ففي سنة ١٨٢٥، جاء عاملان وقاما بطلاء ردهة البيت، وفي سنة ١٨٢٧، سقط جزء من السقف في الفناء، وكاد يقتل رجلا، وفي صيف ١٨٢٨ تولت مدام أوبان توزيع الخبز المبارك، وفي حدود هذه الفترة، اختفى السيد بوريه من غير أن يعلم أحد سر هذا الاختفاء، وتفرق الأصدقاء القدامى، واحدا بعد الآخر، "جيو" و "ليبيار"، و"مدام ليشابتوا" و "روبلان"، والعم "جريما نفيل"، وقد أقعده الشلل منذ مدة طويلة.

وفي نفس الليلة جاء سائق عربة البريد لبون ليفيك بخبر ثورة يوليه، وبعد أيام قليلة عين نائب جديد للحاكم: البارون "دي لارسونيير"، القنصل السابق في أمريكا، وأقامت معه غير زوجته، أختها وثلاث آنسات تجاوزن سن الشباب، وكن يجلسن فوق عشب الحديقة، وقد ارتدين قمصانا فضفاضة، ويملكن خادما زنجيا وببغاء. زرن مدام أوبان، فلم تنس أن ترد لهن الزيارة. وكانت فيليسيتيه، إذا لمحتهن من بعيد، تسرع فتخطر سيدتها بمقدمهن، ولكن مدام أوبان ما كانت لتهتم إلا بشئ واحد، هو ما يأتيها من رسائل ابنها.

لم تستطع بول أن يمارس أية مهنة، وكان يمضي وقته كله منصرفا إلى الحانات، وتسدد عنه أمه ديونه، فلا يلبث أن يغرق في غيرها، وتجلس مدام

أوبان إلى شغلها، بالقرب من النافذة، وتتنهد، فتبلغ زفراتها أسماع فيليسيتيه، وهي في المطبخ تعمل على مغزلها.

كانتا تتريضان معا تحت عريش أشجار الفاكهة، ويدور حديثهما دائما حول فرجيني، وتتوارد الأسئلة على خاطرهما: "هل كان هذا الشئ أو ذلك يعجبها ؟ وماذا عساها أن تقول في هذه المناسبة أو تلك؟".

كان متاع فرجيني كله يشغل خزانة في جدار الغرفة ذات السريرين، ولم تكن مدام أوبان تقلبه إلا نادرا، وفي يوم من أيام الصيف، عزمت على فتح الخزانة، فإذا فراشات تنطلق منها طائرة.

كانت ثيابها مرصوصة تحت لوح خشبي وضعت فوقه ثلاث عرائس، وبعض عجلات، وأدوات منزلية، والإناء الذي كانت تستعمله، وأخرجت مدام أوبان وفيليسيتيه أيضا المجاول والجوارب والمناديل ووضعتا تلك الثياب على السريرين قبل أن تعيدا طيها، وكانت الشمس تشع ضوءها على تلك الأمتعة البسيطة، فتظهر ما فيها من بقع، وما بها من ثنيات قد تكونت من حركات جسم الفقيدة.

كان الهواء ساخنا فيه زرقة، وكان هناك شجرة يصدح بالغناء، وبدا الكون سابحا في هدوء عميق. وعثرت الأثنتان على قبعة من الفراء، طويلة الوبر، بنية اللون، ولكنها تآكلت، بعد أن نهشتها الآفات. وأرادت فيليسيتية أن تحتفظ بها لنفسها، وتطلعت كل منهما إلى الأخرى، وغصت عيونهما بالدموع، وإذا بالسيدة تفتح ذراعيها، فترتمي الخادمة في أحضانها وتتعانقان، في قبلة شفت غليل الألم في قلبيهما، بعد أن أزالت الفوارق بينهما.

وكان هذا أول عناق، فلم يكن من طبيعة مدام أوبان أن تكشف عن خوالج نفسها وأضمرت فيليسيتية لها الشكر، كأنما قد قدمت لها جميلا، ومنذ ذلك اليوم وهي تعزها في أخلاص أشبه بإخلاص الحيوان، وتنظر إليها في إجلال مقدس:

وملأت الطيبة جوانب قلبها. فإذا سمعت قرع الطبول، وشاهدت فرقة من الجيش تسير في الطريق، وقفت بالباب تحمل جرة من عصير التفاح، تقدمه للجنود يستقون، وأصيب بعض الأفراد بالحمى الصفراء، فتولت علاجهم، وتكفلت بالعناية ببعض البولنديين، وعرض عليها الزواج واحد منهم، ثم تخاصما، لأنها عادت ذات صباح من الصلاة، فوجدته في المطبخ، وقد أنسل إليه وأعد لنفسه مرقا من الزيت والخل، راح يأكلها غير مكترث بأي شئ.

وبعد البولنديين، انصرفت رعايتها إلى الأب "كولميش"، وهو شيخ يقال إنه أرتكب فظائع كثيرة في عام ٩٣، وكان يقيم على ضفة النهر بين خرائب حظيرة للخنازير، وكان الغلمان يتطلعون إليه من ثغرات الجدار، ويقذفونه بالحجارة التي كانت تسقط على فراش كان يقبع عليه يهزه سعال بلغمى لا ينقطع، وقد بلغ شعره من الطول حدا كبيرا، والتهب جفناه، وبرز من ذراعه دمل أكبر حجما من رأسه. أمدته فيليسيتية بالثياب، وعنيت بتنظيف مأواه الحقير، وكان في نيتها أن تهئ له إقامة في حجرة العجين، من غير أن تنزعج مدام أوبان لذلك. ولما أنفجر الدمل صارت تضمده كل يوم، وتأتيه أحيانا بشئ من الفطائر، وتجلسه في الشمس، على كوم من القش، والشيخ المسكين يزبد ويرتعش وهو يشكرها بصوت خافت لا يكاد يسمع حتى إذا رآها تبتعد، مد نحوها ذراعيه، كأنما يخشى أن تذهب عنه، ولما مات أقامت له صلاة لتدخل السكينة على روحه.

وفي ذلك اليوم، نزلت بها سعادة كبرى، إذ كانت ساعة العشاء، عندما جاء خادم مدام "لارسونيير" الزنجي، يحمل قفصا فيه الببغاء، والعارضة التي يقف عليها، والسلسلة والقفل. ومعه بطاقة من البارونة تقول فيها، إن زوجها قد رقى إلى مديرية أخرى، وإنهما راحلان في الليلة نفسها، وهي ترجو مدام أوبان أن تقبل هذا الطائر، تذكارا منها وتحية إجلال لها.

وكان الطائر يشغل منذ زمن بعيد خيال "فيليسيتيه"، فهو آت من أمريكا، وهذه الكلمة تذكرها بفكتور، وكانت دائما تسأل الزنجي طرفا من أخباره، وفي مرة قالت له:

"ما أعظم سرور سيدتي، لو كان لها هذا الطائر!"

ونقل الزنجي الحديث إلى سيدته، وكانت لا ترغب في اصطحاب الببغاء معها، فرأت في ذلك سببا للتخلص منه.

(٤)

كان اسمه "لولو"، جسمه أخضر، وطرف جناحيه وردي اللون، وجبينه أزرق، وعنقه في صفرة الذهب.

كان مزعجا بطبعه: لا يفتأ يعض عارضته، وينتزع ريشه، ويبعثر هيضه ويسكب ماء إنائه، ضاقت به مدام أوبان، وتخلصت منه فأعطته إلى فيليسيتيه.

عزمت فيليسيتيه على تعليمه، ولم تمض مدة وجيزة، حتى صار يردد:

"غلام لطيف! خادمك يا سيدي!" السلام عليك يا مريم!" وكان مكانه قريبا من الباب ودهش الكثيرون لعدم رده عليهم حين يدعونه "جاكو"، علما بأن الإسم يطلق على كل ببغاء. وشبهوه بالدجاجة الرومية، أو بقطعة الحطب، فكانت تشبيهاتهم كطعنات تسدد إلى قلب فيليسيتيه، وكان الغريب في طبع لولو، إصراره على ألا ينطق بأية كلمة إذا نظر إليه أحد !

وهو مع ذلك يميل إلى صحبة الناس، فإذا كان يوم الأحد وفد على مدام أوبان أولئك الآنسات من أسرة "روشفوي" والسيد "دي هوبفيل"، وصحاب آخرون مثل "أونفروي" بائع العقاقير، والسيد "فاران" والعقيد "ماتيو"، وراح الجميع يلعبون الورق، طفق لولو يطرق زجاج الأبواب والنوافذ بجناحيه، ويطير مضطربا مهتاجا، لدرجة أنه كان لا يمكن الحاضرين من أن يسمع بعضهم بعضا.

ولعل وجه "بوريه"، بدا له غريبا، فما كان يلمحه حتى يأخذ في الضحك، بل يغرق في الضحك، حتى تتجاوب رنات صوته في أرجاء الفناء، ويرددها الصدى فيهرع الجيران إلى نوافذهم، ويأخذون هم أيضا في الضحك. وكان السيد " بوريه " يجتنب نظرات الببغاء، فيتسلل إزاء الحائط، وقد أخفى وجهه وراء القبعة، حتى إذا بلغ النهر، دلف إلى باب الحديقة، وهو يلقي على الطائر نظرات ليس فيها شئ من الرفق.

وضرب صبي القصاب "لولو" على مقناره، لأنه أجترأ فأنفذ رأسه داخل سلته، ومنذ ذلك اليوم، ولولو لا يفتأ ينقره من خلال قميصه، و "فابو" يهدد بقطع رقبته. ولم يكن فابو قاسيا أو شرسا، وبالرغم من مظهر ذراعيه

الموشومتين، وشعر عارضيه الطويل، وبالرغم من هذا التهديد فإن الفتى كان يحنو على الببغاء، لأنه مرح بطبعه يميل إلى الدعابة، أراد أن يلقن الطائر بعض السباب. وروعت فيليسيتية من هذه التصرفات، قوضعت الطائر في المطبخ، وانفك قيده، وراح يطوف بأرجاء المنزل.

كان إذا هبط السلم، اتكأ بمنقاره المقوس على الدرج، ورفع رجله اليمنى، ثم رجله اليسرى، وكانت فيليسيتية تخشى عليه من هذه "الرياضة"، حتى لا يصاب بنوبات من الإغماء. ومرض الطائر ولم يعد يقوى على الكلام أو الأكل، وتكونت طبقة كثيفة تحت لسانه كما يحدث للدجاج أحيانا، فنزعتها فيليسيتية بأظافرها، وبرئ الببغاء. وذات يوم، نفخ السيد "بول" في استخفاف، دخان سيجارة في منقار الطائر، وشاكسته مرة أخرى مدام لورمو بطرف مظلتها، فخطف حلقتها، وأخيرا طار يوما ولم يعد.

فقد وضعته فيليسيتية على العشب لتنعشه ثم تركته لحظة، ولما عادت لم تجد له أثرا. بحثت عنه أول ما بحثت بين الأحراش، وعلى ضفاف الغداران، وفوق الأسطح، لا تنصت لسيدتها وهي تصيح بها: "خذي حذرك! إنك لمجنونة!" ثم فتشت كل حدائق "بون ليفيك"، وكانت توقف المارة وتسألهم: "ألم تشاهدوا مصادفة ببغائي ؟!" فإذا كانوا من أولئك الذين لا يعرفون الببغاء، أخذت تصفه لهم. وتطلعت فجأة وراء الطواحين، فخيل إليها وهي في قاع الربوة أنها ترى شيئا أخضر يطير، ولما ارتقت الربوة لم تر شيئا. وأكد لها بائع " خردوات " متجول، أنه قابله منذ لحظة في "سان ميلين" في حانوت الأم سيمون. فهرولت إلى هناك، ولكن لم يفهم منها أحد ما تعنيه. ورجعت آخر الأمر منهوكة القوى، وقد تصدعت نفسها أسى وبأسا. وجلست

في وسط الأريكة بالقرب من سيدتها، وفيما هي تقص عليها كل مساعيها المنهكة، إذا بجرم خفيف يهبط على كتفها، إنه لولو! يا للشيطان! ماذا صنع؟ لعله قام بجولة في ضواحي المدينة!

لم تفق فيليسيتية من أثر الحادث إلا بعد عناء، بل إنها لم تفق منه إطلاقا.

لقد أصابها برد أعقبه التهاب في الحلق، وبعد أيام معدودة أخذت تشكو من ألم في أذنيها، ولم تمض سنوات ثلاث، حتى نزل بها الصمم. فكانت تتحدث بصوت عال داخل الكنيسة، ورأى الكاهن أنه يحسن بها أن تدلي باعترافها في المحراب، مع أن خطاياها لو ذاعت في جميع أرجاء الأبروشية، لما كان فيها ما يشينها أو يتأذى منها السامعون.

وانتهى بها الأمر إلى البلبلة والاضطراب، يقرع أذنها طنين دائم، ويخيل لها أنها تسمع أصواتا، تقول لها سيدتها في أغلب الأحيان: "يالله! كم أنت بلهاء!" فتجيب: "نعم يا سيدتي!" ثم تهم بالبحث عن شئ مما حولها.

وازدادت دائرة أفكارها ضيقا على ضيق، ولم يعد لرنين النواقيس وخوار الثيران وجود عندها، وأصبحت الكائنات كلها تتحرك في سكون الأشباح. ولم يعد يصل إلى سمعها غير صوت واحد، هو صوت الببغاء.

وكأن الببغاء أراد أن يسري عنها، فأخذ يقلب صوت المشواة في دورانها، ونداء بائع الأسماك ذي الصوت الرفيع، وحز منشار النجار الذي يقيم أمامهم، وإذا دق ناقوس الباب، أخذ يحاكي مدام أوبان صائحا: "فيليسيتيه! الباب! الباب!"

وكان يدور بينهما أكثر من حوار، يردد هو الجمل الثلاث، التي لا يعرف سواها، وتجيبه هي بكلمات لا يربط بينها معنى ولكنها تزخر بمشاعر قلبها. كان لولو، في وحشتها، يوشك أن يكون إبنا لها بل عشيقا، يرتقي أصابعها، ويطبق بمنقاره على شفتيها، ويمسك بوشاحها، ويطرق بجبينه كما تفعل هي، ثم يهز رأسه كما تهز المرضعات رءوسهن، فتضطرب أجنحته، وأجنحة قلنسوتها معا.

وإذا تراكمت السحب، وقصف الرعد، أخذ يصرخ، كأنه يتذكر كرسيول المطر في غابات موطنه، وإذا شاهد الماء ينساب، أصابه ذهول، وطار مبهورا، يرتفع حتى يبلغ السقف، فيتساقط من طيرانه كل شئ ثم ينطلق من النافذة إلى الحديقة، ليخوض في الماء، ثم يعود سريعا إلى المدفأة، ويحط على أحد حواجزها، وينفض نفسه ليجفف ريشه، فيرى منه تارة ذيله وتارة منقاره.

وفي صباح يوم من شتاء ١٨٣٧ القارس، إفتقدت فيليسيتيه ببغاءها، وقد وضعته أمام المدفأة، من شدة البرد فإذا به جثة هامدة. في وسط قفصه، وقد تدلت رأسه، وبرزت أظافره من خلال الأسلاك الحديدية. ورجحت أن يكون قد أصيب بإحتقان قضى عليه. وطاف بظنها أن البقدونس أدى إلى تسممه واشتبهت في أن يكون "فابو" هو قاتله، مع أن الأدلة على ذلك غير متوافرة.

وبكت بكاء مريرا، حتى قالت لها سيدتها. "إذا كان الأمر كذلك فحنصيه".

وكان الصيدلي يعطف دائما على الببغاء فاستشارته فيليسيتيه في ذلك. فبعث برسالة إلى "الهافر" وجاءه الرد أن هناك شخصا يدعى "فلاشير" يتعهد

بإنجاز هذه المهمة، وعزمت فيليسيتيه أن تحمل بنفسها الطائر الملفوف حتى "هو نفلور" لكيلا يضيع في عربة البريد كما يحدث أحيانا.

تتابعت أشجار التفاح، جرداء من أوراقها، على جانبي الطريق، وغطت الثلوج الأخاديد، ونبحت الكلاب حول الضياع، وانسابت فيليسيتيه بخطى سريعة تسير وسط الطريق، بحذائها الأسود الصغير، وقد دست يديها تحت سترتها وأمسكت بسلتها.

إجتازت الغابة، وبعد أن خلفت وراءها "الهوشين" وصلت إلى "سان جاتيان".

وفيما هي سائرة، إذ أقبلت من خلفها عربة بريد تعدو بسرعة، في سحابة من الغبار، وساعدها إنحدار الطريق على الإندفاع، فانطلقت كالعاصفة. ولما رأى الحوذي هذه المرأة لا تنزاح عن طريقها، هب واقفا حتى أعلى سطح العربة وأخذ السائس يصيح بدوره، بينما ضاعفت الجياد الأربعة سرعتها، وقد أفلت زمام قيادها منه، وحف الحصانان الأولان بها فشد السائق اللجام، ودفع الخيل إلى الرصيف، ولكنه رفع ذراعه في ثورته وطوح بسوطه الكبير وهوى على فيليسيتيه بضربة قوية طوتها من بطنها حتى قمة رأسها، فسقطت على ظهرها.

ولما ثابت إلى رشدها، كان أول عمل أتته، أن فتحت سلتها، فاطمأنت نفسها، عندما رأت لولو لم يصب بأذى، وشعرت بنار تلسع خدها الأيمن فتحسسه بيديها، وإذا بلون أحمر يصبغها، ذلك أن الدم كان يسيل من وجهها.

جلست على كومة من الحصى، وراحت تمسح خدها بمنديلها، ثم أكلت قطعة من الخبز اليابس، كانت وضعتها للطوارئ في سلتها وأخذت تنظر إلى الطائر فتسلو جرحها.

وصلت إل قمة "أكموفيل"، فلاحت لها أنوار "هونفلور" تتلألأ في الليل كأنها حفنة من النجوم، والبحر من بعيد ينتشر، في غير وضوح. وتوقفت فيليسيتية وأخذتها نوبة من الضعف والحنين. فإذا بها تتمثل شقاء طفولتها، وخيبة أملها في أول حب لها، وسفر ابن أختها، وموت فرجيني، وتعود إلى ذاكرتها جميع تلك الصور كما تعود أمواج المد إلى الشاطئ، ثم تزحف إلى حلقها. فتختنق بها أنفاسها.

ثم أرادت أن تحدث ربان السفينة. وأخذت توصيه، ملحة في التوصية، دون أت تذكر له. ماذا هي مرسلة.

أبقى "فلاشير" الببغاء لديه مدة طويلة. مع أنه كان يعد دائما بإرساله في الأسبوع التالي، وانقضت ستة شهور، وأبلغ "فلاشير" عن شحن صندوق، وانتهى الموضوع عند هذا الحد. ورجحت فيليسيتية أن الببغاء لن يعود، وفكرت في نفسها قائلة: "لقد سرقوه مني!"

غير أنه وصل أخيرا، وكان رائعا في مظهره ينتصب معتدلا فوق غصن شجرة، وقد شد إلى قاعدة من خشب الكابلي، رافعا في الهواء إحدى رجليه حانيا رأسه، مطبقا بمنقاره على جوزة، أراد المحنط أن يضفي عليها شيئا من العظمة والبهجة، فكساها بلون ذهبي.

أودعت فيليسيتية الطائر غرفتها.

ولم تكن غرفتها مطروقة إلا لنفر قليل، وكانت بمثابة محراب وسوق في الوقت نفسه، لكثرة ما حوت من أشياء مقدسة، وغيرها من أمتعة متباينة.

كان هناك صوان كبير يعوق فتح الباب، وتطل على الفناء كوة، في

مواجهة النافذة الواقعة على الحديقة، وبالقرب من السرير ذي السيور، منضدة عليها وعاء للماء، ومشطان، وقطعة من الصابون الأزرق في طبق مشروخ وعلى الجدار مسابح وأيقونات، وعدة تماثيل للعذراء، وإناء للماء المقدس، صنع من خشب الجوز.

وفوق الخزانة الصغيرة، بسط مفرش، فبدت كمذبح الكنيسة، وعليها الصندوق المصنوع من القواقع، الذي كان فكتور قد أهداه لها، ثم يوجد أيضا رشاش ماء للحديقة، وكرة للعب، وكراسات خط، وكتاب الجغرافيا المصورة، وزوج من الأحذية، وفي مسمار المرآة، علقت من اشرطتها تلك القبعة الصغيرة من الفراء! وكانت فيليسيتيه تتغالى في هذا اللون من التكريم، حتى لتراها تحتفظ بحلة رسمية من حلل سيدها، وكانت تختزن في غرفتها كل الأمتعة العتيقة التي تستغني عنها مدام أوبان، فهناك زهور صناعية في طرف الخزانة، وصورة "الكونت دارتوا"، قد وضعت داخل الكوة.

واستقر لولو، بواسطة لوح خشبي صغير، فوق جزء بارز من المدخنة داخل المسكن، فإذا هبت من نومها كل صباح، شاهدته مع ضوء الفجر، فتمثلت الأيام الماضية، وتذكرت وقائع تافهة، بأدق تفاصيلها، دون أن تستشعر ألما، بل راحة وأمنا.

لم تكن تتصل بأحد، وإنما تعيش دائما في ذهول النائم اليقظان، لا تدب الحياة في أوصالها، إلا في مواكب "عيد الرب"، حيث تقصد جاراتها، لتجمع منهن مشاعل وحصرا تزين الهيكل الذي ينصب في الطريق.

وفي الكنيسة، كانت دائما تطيل النظر إلى صورة "الروح القدس"،

ولاحظت أن به بعض الشبه ببغائها، وبدا لها ذلك الشبه أكثر وضوحا في صورة من عمل "أبينال"، تمثل عماد السيد المسيح، إنه صورة حقة من "لولو" بجناحيه في لون العقيق وجسمه الزمردي.

اشترت المصورة وعلقتها في موضع "الكونت دارتوا"، فكانت بنظرة واحدة، ترى الأثنين معا، وقد ارتبطا في ذهنها، فأصبحت للبغاء قدسيته، لصلته بالروح القدس، وصار الروح القدس، أكثر حياة في نظرها، وأقرب إدراكها لفهمها. فإن "الأب السماوي" لم يكن ليرضى أن يختار حمامة، يعلن بها عن نفسه إذ أن الحمام لا يتكلم، وإنما وقع إختياره على واحد من أجداد "لولو". وكانت فيليسيتيه تصلي، وهي تتطلع إلى الصورة، ولكنها بين الفينة والفينة، كانت تتلفت خلسة نحو الطائر.

أبدت رغبتها في الإنضمام إلى "آنسات السيدة العذراء"، ولكن مدام أوبان جعلتها تعدل عن تلك الفكرة.

وحدث في ذلك الوقت أمر أثار الإهتمام، ألا وهو زواج "بول".

بدأ بول حياته كاتبا عند أحد الموثقين، ثم اشتغل بالتجارة، وعمل في الجمرك وفي الضرائب، بل شرع أيضا يسعى إلى عمل في إدارة المياه والغابات، حتى إذا بلغ السادسة والثلاثين، اكتشف فجأة، وبإلهام من السماء، أن طريقه الحق هو العمل في التسجيل! وأبدى في العمل الجديد من الصفات الممتازة، ما حمل أحد المحاسبين على أن يعرض عليه الزواج بابنته، وأن يعده برعايته.

واصطحب بول زوجته إلى دار أمه، وقد أصبح فتى رزينا، جادا في طباعه.

واستنكرت الزوجة العادات السائدة في "بون ليفيك" وأظهرت الأنفة والكبرياء، وأهانت فيليسيتيه، فلما سافرت، انزاح هم ثقيل كان يطغى على قلب مدام أوبان.

وفي الأسبوع التالي، جاء نبأ وفاة السيد "بوريه" في فندق ريفي، جنوبي بريتانيا، وتأكدت الإشاعة القائلة بأنه قد انتحر، وثارت الشبهات حول ذمته وأمانته، وراجعت مدام أوبان حساباتها، وإذا بها تكشف عن سلسلة من مساوئه: اختلاسات في الإيرادات المستحقة، وبيوع غابات ملفقة، وأيصالات زائفة، وغير ذلك من السرقات، فضلا عن وجود ابن غير شرعي له، وقيام علاقات بينه وبين سيدة من "دوزيليه".

عصر الأسى قلبها، على اثر اكتشافها هذه الفضائح، وفي شهر مارس عام ١٨٥٣، استشعرت ألما في صدرها، وبدا لسانها كأنما غشيته طبقة من الدخان، ولم يجد استعمال الديدان في تهدئة ما تحسه من ضيق في التنفس، وفي مساء اليوم التاسع، لفظت أنفاسها الأخيرة، وقد بلغت من العمر الثانية بعد السبعين.

وكان يغلب على الظن أنها أصغر سنا مما كانت تبدو عليه حقيقة. كان شعرها داكنا، تحيط ضفائره بوجهها الشاحب، الذي ترك الجديري فيه آثاره، لم يحزن عليها سوى قلة من الأصدقاء، لما فطرت عليه من كبرياء كانت يباعد بينها وبين الناس.

وبكتها فيليسيتيه، كما لا يبكي الخدم سادتهم، فكيف تموت سيدتها قبلها؟ إن ذلك ليحير أفكارها، ويبدو لها مخالفا لطبيعة الأمور، لا يقبله العقل وتستبشعه النفس.

وهبط عليها الورثة، بعد عشرة أيام، وهي أقصر مدة للمجئ على وجه السرعة، من مدينة بيزانسون "إلى بون ليفيك" وفتشت زوجة الإبن الأدراج وانتقت بعض الأثاث، وباعت البعض الآخر، ثم قفلت راجعة هي وزوجها إلى مقر عمله في التسجيل.

إختفى مقعد سيدتها، كما اختفت المنضدة الصغيرة المستديرة، ومدفأتها الخاصة والقاعد الثمانية، وانتزعت الصور وظهرت مكانها مربعات صفراء وسط الجدران، وأخذ الابن وزوجته السريرين بفراشهما وأفرغا كل ما في خزانة الحائط ولم يبق من متاع فرجيني أي شئ!... وعادت فيليسيتيه إلى غرفتها، مصعدة في طوابق المنزل والحزن يكاد يفقدها صوابها.

وفي اليوم التالي علقت بالباب لافتة، وصرخ الصيدلي في أذني فيليسيتيه يخبرها أن المنزل معروض للبيع.

فترنحت واضطرت إلى أن تجلس.

وكان أشد ما يعصر نفسها حسرة، هو أن تترك غرفتها، التي يجد فيها لولو المسكين خير مستقر! شملته بنظرة ملؤها القلق وراحت تضرع للروح القدس وقد تملكت منها تلك العادة الوثنية، فكانت تتلو صلواتها وهي جاثية أمام الببغاء، وإذا تسللت الشمس أحيانا من الكوة، وسقطت على عين الطائر الوجاجية، انبثق منها شعاع عريض وضاء، تنهر له نفس فيليسيتيه.

تركت لها سيدتها إيردا قدره ثلاثمائة وثمانون فرنكا، وكانت الحديقة تمدها بما تحتاجه من خضروات أما الملابس فكان عندها منها ما يكفيها حتى آخر أيامها وكانت تقتصد في الإضاءة فتأوى إلى فراشها عند الغسق.

لم تكن تخرج إطلاقا متجنبة بذلك رؤية حانوت الأمتعة العتيقة حيث يعرض بعض قطع الأثاث القديم، وهي مذ أغمى عليها تعرج بإحدى ساقيها وقد إنهارت قواها واستعانت بالأم "سيمون" التي أفلست في "بقالتها" فصارت تعودها كل صباح تكسر لها الأخشاب وتغترف لها الماء.

وضعفت عيناها، ولم تعد النوافذ تفتح، وتوالت السنون والمنزل لا يجد مستأجرا ولا شاريا.

وخشيت فيليسيتيه أن تطرد من المنزل، فلم تسع إلى أي إصلاح فيه وتآكلت عوارض السقف، وانقضى شتاء كامل، كان فيها فراشها دائم البلل حتى إذا مضى عيد الفصح، أخذت تبصق دما.

إستنجدت الأم سيمون بأحد الأطباء، وأرادت فيليسيتيه أن تعرف ما بها ولكن صممها كان أشد وطأة من أن تسمع شيئا، فلم يبلغ أذنيها إلا كلمة واحدة: "إلتهاب رئوي" وكانت تعرف الداء، فقالت في هدوء "آه مثل سيدتي!" وكان من الطبيعي في نظرها أن تلحق بسيدتها.

واقترب الموسم الذي تقام فيه الهياكل في كل الطرقات.

وكان أول هيكل يقام عند سفح الربوة، والثاني أمام مكتب البريد والثالث في منتصف الطريق، على وجه التقريب، وقامت منافسات بخصوص الهيكل الثالث، ووقع اختيار سيدات الأبروشية آخر الأمر على إقامته في منزل مدام أوبان.

زادت نوبات الربو، وأشتدت وطأءة الحمى، وأحزن فيليسيتيه وأقلقها أنها لم تسهم إطلاقا في نصب المذبح وتمنت لو استطاعت، على أقل تقدير أن

تضع فوقه شيئا من لدنها وفكرت حينذاك في الببغاء، واعترضت جاراتها بحجة أنه أمر لا يليق، ولكن الكاهن أذن لها بأن تفعل ما تريد فكان فرحها عظيما، حتى أنها رجت الكاهن أن يقبل منها "لولو" بعد موتها وهو كل ثروتها.

ومن الثلاثاء حتى السبت، أي ليلة "عيد الرب"، اشتد سعالها، ولما أتي المساء كان وجهها كلفا محموما، والتصقت شفتاها بلثتها وتقيأت كثيرا وحين لاح صباح اليوم التالي، استشعرت هبوطا كبيرا، فأرسلت في استدعاء قسيس.

وقفت ثلاث نساء طيبات إلى جانبها، وهي تتناول المسحة الأخيرة وأبدت رغبتها في التحدث إلى "فابو".

جاء فابو مرتديا ثياب الآحاد، وأحس بضيق يغشاه، في هذا الجو المقبض القاتم.

قالت وهي تجهد في بسط ذراعها. "اغفرلي، كنت أظن أنك أنت الذي قتلته!".

ما معنى مثل هذه الترهات؟ كيف ساورها الظن بأن يرتكب رجل مثله جريمة قتل؟ غضب وثار وكاد أن يحدث جلبه وضوضاء، فقيل له. "ألا ترى أنها فقدت صوابها؟".

وكانت فيليسيتيه بين اللحظة والأخرى تتحدث إلى أطياف لا وجود لها وانصرفت النسوة الطيبات، وتناولت الأم "سيمون" طعامها.

وانقضت فترة طويلة، رفعت سيمون بعدها "لولو" وأدنته من فيليسيتيه وقالت: "هيا! ودعيه!".

وكانت الديدان قد أخذت تنهشه، بالرغم من أنه لم يكن جيفة بعد وانكسر أحد جناحيه، وبرزت مشافة الكتان من بطنه ولكن فيليستيه وقد أصبحت عمياء، أخذته وقبلته في جبينه، وضمته مدة إلى خدها، ثم استردته الأم "سيمون" لتضعه في مكانه من المذبح.

(٥)

عبق الجو بروائح الصيف تنبعث من الأعشاب، وعلا طنين الذباب وأرسلت الشمس أشعتها، فتألقت صفحة النهر، وتوهجت حجارة سطح المنزل وعادت الأم سيمون إلى غرفتها، وأسلمت جنبيها لرقاد هادئ ساكن.

انتهت الصلاة. ودقت الأجراس فهبت الأم سيمون من نومها، وصحت فيليسيته من هذيانها، وراحت تفكر من موكب المحتفلين "بعيد الرب"، فتراءى لها، كما لو كانت تسير معهم فيه.

مشى صبية المدارس جميعا، والمرتلون ورجال الإطفاء، فوق الأرصفة، بينما سار الموكب في وسط الطريق، يتقدمه حارس القصر، يحمل رمحه، يأتي بعده خادم الكنيسة رافعا صليبا كبيرا، فمعلم المدرسة يراقب تلاميذه، فالراهبة لا ترفع عينها عن بناتها الصغيرات فثلاث من أبهى وأنضر الفتيات، يشبهن الملائكة بشعورهن الجعداء، ينثرن في الهواء أوراق الورد، ثم الشماس فاتحا ذراعيه، ليضبط أنغام الموسيقى، فاثنان من حملة المجامر، يتلفتان كل لحظة نحو القرص الذهبي الذي يضم "القربان المقدس" يرفعه الكاهن، وقد تدثر في أبهى حلله ويتقدم تحت مظلة من المحمل الأحمر يحملها أربعة من المجلس

الكنسي، ومن خلفهم تتدفق الجماهير، يزحم بعضهم بعضا، بين الطنافس البيضاء التي تكسو جدران المنازل، ثم وصل الموكب في طريقه إلى أسفل الربوة.

وتقصد عرق بارد من جبين فيليستيه، حتى بلل صدغيها، فراحت الأم سيمون تمسحه بخرقة، وهي تتحدث إلى نفسها قائلة إن يوما لابد آت عليها، تمر فيه بهذه التجربة.

وعلا ضجيج القوم في وقت من الأوقات، حتى إذا بلغ أشده أخذ يبتعد.

ودوت طلقات نار، فهزت زجاج الشرفات، كان سائقو البريد يحيون "القربان المقدس"، وأخذت فيليسيتيه تقلب بصرها، وغمغمت في صوت خفضته قدر ما استطاعت: "هل هو بخير؟" وقد غشيها هم وقلق على ببغائها.

ودخلت في النزع الأخير، فأخذتها حشرجة، وأسرعت شهقاتها، تهز جنباتها هزا، وطفا الزبد على جانبي فمها، وسرت الرجفة في كل أوصالها.

وبعد لحظة سمعت طنطنة النواقير، وترانيم الصبية الرفيعة، وصوت الرجال الأجش، وكان السكون يرين بين الحين والحين، فلا يسمع غير وقع أقدام تضرب في الأرض، فتخفف الأزهار من وطئها، ويحدث لها صوت كصوت القطيع من الغنم، ينساب فوق الأعشاب.

وظهر رجال الكهنوت في الفناء، وتسلقت الأم سيمون، كرسيا لتصل إلى الكوة، وتمكنت بذلك من أن تشرف على الهيكل.

وتدلت على المذبح حبال خضراء من أوراق الشجر، وقد زين غطاؤه بهدب ذات ثنايا، طرزت على نمط انجليزي، وأقيم في وسطه إطار بداخله آثار مقدسة. وفي زوايتيه شجيرتان من البرتقال، وعلى امتداده مشاعل من الفضة، وأوان من الخزف، تنبثق منها زهور عباد الشمس، والزنبق، والفاويا الحمراء وبعض زهور الكشاتبين، وباقات من الهورتنسيا، وكانت هذه المجموعة من الألوان الباهرة، تنحدر في ميل من الطابق الأول حتى البساط، ثم تمتد فوق البلاط على الأرض، ثم كان هناك من الأشياء النادرة، ما يلفت النظر، من إناء للسكر، مصنوع من الفضة المذهبة تتوجه زهور البنفسج، ومدليات من أحجار "الانسون"، تتألق على قواعد من البلاتين، ولوحتان من صنع الصين، نقشت عليهما مناظر تلك البلاد، وتوارى "لولو" تحت باقة من الورد الأحمر فلم يظهر منه غير جبينه الأزرق، وكان أشبه بصفحة من اللازورد.

واصطف أعضاء المجلس الكنسي، والمرتلون والصبية، على جوانب الفناء الثلاثة، وارتقى الكاهن الدرج بطيئا، وفوق غطاء الدنتلا وضع قرصه الذهبي الكبير المتألق، فخر الجميع راكعين، وساد المكان سكون شامل، وطفقت المجامر تعلو، وتهبط، متأرجحة فوق سلاسلها.

ونفذت هبة من النسيم إلى غرفة فيليسيتيه، فمدت أنفها لتستنشقه في وله وتعبد، ثم أسبلت جفنيها، وارتسمت الإبتسامة على شفتيها، وسكنت خفقات قلبها، رويدا رويدا، تزداد خفوتا لحظة بعد أخرى وتزداد رقة، كمعين ماء آخذ في النضوب، أو صدى صوت آخذ في التلاشي، ولما لفظت آخر أنفاسها خيل لها أنها ترى في السماء المنفرجة، ببغاء ضخما، يحلق فوق رأسها.

أسطورة القديس جوليان

"... لم يشر على الله الذي كتب عليه أن يقترف ما اقترفه، ومع ذلك، كان شعوره بارتكاب الجريمة، يعصر نفسه حسرة وبأسا!"

"... صنع لنفسه مسحا به إبر من حديد، وارتقى زاحفا على ركبتيه كل تل بنيت فوق قمته كنيسة، غير أن تلك الفكرة القاسية كانت تحيل المعابد في عينيه سوادا، وتعذبه عذابا أليما لما يلقاه من عناء النفس والتكفير عن جرمه".

(١)

كان والد "جوليان" وأمه يعيشان في قصر بين الغابات على سفح أحد التلال. وفي زوايا القصر، تنتصب أبراج أربعة، تتوجها أسطح مدببة، غطيت بطبقات من الرصاص، وترتكز قواعد الجدران على كتل من الصخر، تنحدر وعرة حتى قاع الخنادق. وبلاط الفناء ناصع طلي، يشبه بلاط الكنيسة. وماء المطر يندفع نحو الجب، تلفظه مزاريب طويله، على هيئة تنين يتجه بفمه إلى أسفل، وعلى حافة النوافذ، من كل طابق في القصر، كنت ترى ريحانة أو زهرة من أزهار الهليوتروب قد تفتحت في أصيص من الصلصال المنقوش.

وهناك رقعة أخرى من الأرض فسيحة، تحوطها أوتاد، وتقع العين أول ما تقع فيها على بستان من أشجار الفاكهة، ثم تمتد إلى حوض رسمت مجموعات الزهور فيه على صورة أرقام، ويعقب ذلك مجموعة من العروش،

لن يريد أن يستروح النسمات الرقيقة، ثم نأتي آخر الأمر لعبة "الصولجان"، يلهو بها الخدم وقت فراغهم. وفي الطرف الآخر، كانت توجد حظيرة الكلاب، وحظائر الخيل، ثم المخبز، والمعصر، فمخازن الغلال، وحول ذلك كله ينبسط مرج أخضر، تحيط به هو أيضا أسوجة قوية من الشوك.

مضى زمن طويل والقوم يعيشون في سلام، فالأرض لا ينقطع حرلمها. والغدران لا ينضب ماؤها، وطير القطا لا يفتأ ينصب عشه بين مشارف الأبراج والحارس، حامل القوس، يمضي سحابة اليوم ذماما وحيئة، فوق سور الحصن، فإذا أحس بوطأة الشمس، دخل إلى مرقبه، وأسلم جنبيه للرقاد كما يفعل الناسك في منسكه.

أما في داخل القصر، فكانت مقابض الأبواب وما شاكلها من حليات حديدية، تتألق أينما وقع عليها البصر، وقد فرشت الحجرات بالبسط والطنافس تقيها شدة البرد، وغصت الخزائن بالأغطية والأكسية، وتراكمت دنان الخمر في أركان القبو، وكادت الصناديق المصنوعة من خشب البلوط تتشقق تحت ثقل أكياس الفضة.

وفي قاعة السلاح كان الناظر إليها يلمح بين الأعلام ورءوس الضواري أسلحة من جميع العصور وكل الأمم، فمن مقاليع "العمالقة" وحراب "الجرميين" إلى سيوف "العرب"، ودروع "النورمانديين".

وكانت المشواة الكبيرة في المطبخ، تستطيع أن تحمل ثورا يقلب عليها، ولم يكن المعبد الصغير أقل روعة من مصلى أحد الملوك، بل كان هناك أيضا في ركن منعزل، حمام من الطراز الروماني، ولكن رب القصر،

لسذاجة قلبه حرم على نفسه استعماله، فهو في تقديره، رجس من صناعة عباد الأوثان.

كان دائما مدثرا بمعطف من فراء الثعلب، يروح ويغدو في بيته، يحكم بين أتباعه، ويفض منازعات جيرانه في سلام أما في الشتاء، فيمضي وقته، يتطلع إلى ندف الثلج المتساقط. أو يستمع إلى قراءة القصص، وما أن تلوح بوادر الربيع، حتى يخرج ممتطيا ظهر بغلته، ينساب بين الطرقات القصيرة، محاذيا حقول القمح، وقد اخضرت عيدانها، ويتحدث إلى من يقابله من أهل القرية ينصح هذا ويرشد ذاك، وتوالت عليه أحداث كثيرة، وتزوج آخر أمره من فتاة تنحدر من أسرة عريقة في النسب.

كانت بيضاء، شاهقة في بياضها، تتنفس كبرا ووقارا، تكاد أطراف قلنسوتها تلمس ساكف الأبواب، ويمتد من خلفها ذيل ثوبها الصوفي، على بعد ثلاث أقدام، وكان نظام الخدم في بيتها أشبه بنظام الدير، فهي في كل صباح توزع العمل بين خادماتها، وتراقب تجهيز المربيات والدهون، وتجلس إلى مغزلها أو تطرز مفارش الهيكل، وكانت كثيرا ما تضرع إلى الله، فأجاب دعاءها ورزقها ولدا.

وعندئذ أقيمت الأفراح، ومدت الولائم، وابتهج القوم، ثلاثة أيام وأربع ليال، على ضوء المشاعل، وأنغام الأعواد، والأرض مسكوة بأوراق الشجر. أطعم المدعوون أندر ما عرف من توابل، قدمت مع دجاج سمين كالخراف، وجئ بفطيرة، شقت فخرج منها قزم، كان ملهاة للحاضرين، ولم تكف آنية الشراب، والجمهور في ازدياد مستمر، فصبوا الخمر في الأبواق والخوذات.

لم تشهد الأم هذه الاحتفالات، كانت ترقد هادئة في فراشها، وهبت ذات مساء من نومها، فلمحت أمامها ما يشبه طيفا يتحرك، تحت شعاع القمر المتسرب من النافذة، كان طيف عجوز في مدرعة من الصوف الخشن، تتدلى من جانبه مسبحة، وعلى كتفه جراب، وكان كالناسك تماما في مظهره. دنا الطيف من رأس مخدعها، وقال لها دون أن يحزك شفتيه:

– ابتهجي أيتها الأم، فسوف يصبح ولدك قديسا!

كادت أن تصيح، ولكن الطيف انساب على شعاع القمر وارتفع إلى الجو في هدوء ثم اختفى. وعلت أصوات الطاعمين بالغناء، أشد من ذي قبل. وسمعت الوالدة ألحان الملائكة، وارتمت رأسها ثانية على الوسادة، وكان يطل عليها إطار من حجر الياقوت الجمري وضعت بداخله عظمة من عظام الشهداء.

ولما سئل الخدم في اليوم التالي، أجابوا جميعا بأنهم لم يشاهدوا ناسكا وسواء أكان مارأته الأم حقيقة أم حلما، فلابد أنها رسالة من السماء، ولكنها حرصت على ألا تذكر من ذلك شيئا، خشية أن تتهم بالزهو والكبرياء.

انصرف المدعوون عند مطلع النهار، ووقف أبو جوليان خارج الباب السري في القصر، يودع آخر ضيوفه، فإذا برجل متسول يلوح أمامه، يلفه الضباب، يدل مظهره على أنه من البدو الرحل، له لحية مضفرة، وتحيط بذراعيه حلقات من الفضة، وتشع النار من مقلتيه، تمتم الرجل بعبارات متقطعة، وكأنه يستلهمها، قائلا:

– آه! آه! ابنك!.. دماء غزيرة!.. مجد عظيم!.. سعد دائم؟ أسرة إمبراطور!"

وانحنى الشحاذ يلتقط ما ألقى إليه من صدقة، ثم اختفى بين الأعشاب وتلاشى تماما.

تطلع صاحب القصر إلى يمينه، ثم إلى يساره، وراح ينادي، ما أسعفه النداء، ولكن أحدا لم يجبه، والريح تصفر، وضباب الصباح يتطاير.

لقد نسب هذه الرؤيا إلى ما كان يستشعر من وصب في رأسه، نتيجة النوم القليل، وقال يحدث نفسه:

"إذا ذكرت هذا الأمر لأحد، فسوف يسخر مني." ولكنه بهر بما يشر من أجل ابنه من مجد وسؤدد، وإن لم يكن الوعد صريحا واضحا بل لقد ساوره الشك في أن يكون قد سمع شيئا.

وطوى كل من الزوجين سره عن الآخر، ولكنهما أضمرا للطفل نفس الحب. وكانا يريان فيه نذيرا من عند الله، فأحاطاه بكل مظاهر الاحترام والإجلال. كان فراشه محشوا بأثمن الريش، يضي دائما فوقه مصباح على صورة حمامة، ويهز مهده مرضعات ثلاث، ويبدو كأنه يسوع الطفل، وقد تدثر بلفائفه، وسرت في وجنتيه حمرة الورد، وكانت عيناه زرقاوين، ومعطفه مصنوعا من الحرير الموشي بالفضة، وقلنسوته مرصعة باللالئ، ونبتت أسنانه دون أن يبكي مرة واحدة.

فإذا بلغ السابعة من عمره، علمته أمه الغناء، ورفعه أبوه على ظهر حصان ضخم، يلقنه الفروسية والشجاعة، وكان الطفل يبتسم سعيدا، وسرعان ما ألم بكل شئ عن الخيل.

وتولى ناسك عجوز فقيه تعليمه الكتاب المقدس، والأرقام العربية، والحروف اللاتينية، كما لقنه كيف يرسم على الورق، صورا صغيرة دقيقة، وكانا

يعملان بعيدا عن الضوضاء، في قمة أحد الأبراج.

فإذا انتهى الدرس نزلا إلى الحديقة، يدرسان الأزهار، وهما يسيران الهويني.

وتقع العين أحيانا على قطيع من الدواب، تسير في أقصى الوادي، يسوقها رجل يمشي على قدميه ويرتدي الملابس الشرقية، فيرسل صاحب القصر إليه خادمه، وقد تبين له من زيه أنه أحد التجار. وما أن يطمئن قلب الرجل الغريب، حتى يحيد عن طريقه، ويعرج نحو القصر، ويدلف إلى حجرة الانتظار، وهنالك يخرج من صناديقه ثيابا من المخمل والحرير، وحليا من الذهب، وعطورا، وأشياء أخرى غريبة، لا يعرف القوم فيم استعمالها، وينصرف الرجل آخر الأمر، وقد حصل على ربح وفير، ولم يعنف به أو يصب بأذى. وفي بعض الأحايين، يطرق الباب جمع من الحجاج، يجلسون أمام الموقد، فيتصاعد البخار من ثيابهم المبتلة، حتى إذا أكلوا وشبعوا، أخذوا يروون أخبار أسفارهم: من سفن تضل طريقها فوق البحار المزبدة، إلى رحلات على الأقدام فوق الرمال المحرقة، يتحدثون عن وحشية عبدة الأوثان وعن مغاور الشام، ومذود المسيح والقبر المقدس، ثم يعطون الفتى، بعض القواقع، يخرجونها من عباءاتهم.

وما أكثر ما كان رب القصر يحتفي بالقدامى من أصدقائه في الحروب، فيتذاكرون، وهم يعبون الخمر، معاركهم، وكيف كانوا يقتحمون القلاع، وآلات الحرب تقرع آذانهم، والجروح المميتة تغشى أجسامهم. ويستمع جوليان إلى ذلك كله، ويصيح معجبا، فلا يشك أبوه في أنه سيصبح فيما بعد محاربا غازيا. ولكن الصبي كان يذهب إلى صلاة المساء، وعند خروجه يمر

بالفقراء، فيحنون له هاماتهم، فيأخذ من كيسه النقود ويوزع الصدقات، في كثير من النبل والتواضع، فيراود الأمل قلب أمه وتود لو تراه في المستقبل رئيسا للأساقفة.

كان موضعه في الكنيسة إلى جانب والديه، ومهما طالت الصلاة، فإنه كان يظل جاثيا على مركعه، وقلنسوته على الأرض، ويداه متشابكتان.

وذات يوم، أثناء الصلاة، رفع رأسه، فلمح فأرة صغيرة بيضاء، تخرج من ثقب في الجدار، ثم تخطو نحو الهيكل، فتقف عند أول الدرج، وتتطلع ذات اليمين وذات اليسار، ثم تفر من حيث جاءت. وفي يوم الأحد التالي تولاه الاضطراب لمجرد التفكير في أنه قد يرى الفأرة ثانية، وقد عادت الفأرة، وصار يتوقع مجيئها كل يوم أحد، حتى ضاق بها، ونقم عليها، وقرر أن يتخلص منها.

أوصد الباب، ونثر فوق الأعتاب فتات قطعة من الحلوى، ووقف أمام الثقب، متربصا والعصا بيده.

انقضت فترة طويلة، وإذا بأنف وردي اللون يبرز، ثم تظهر الفأرة كلها فيضربها الفتى ضربة خفيفة، ثم يقف مشدوها أمام هذا الجسم الصغير، وقد سكنت كل حركة فيه، وسالت قطرة دم لطخت البلاط، فمسحها الصبي سريعا بكمه، وقذف بالفأرة إلى الخارج، ولم يعلم أحدا بما فعل.

وكانت الطيور على اختلافها تأتي فتلتقط الحب من الحديقة، وخطر للفتى أن يضع في قصبة جوفاء، بعض بذور "البسلة". حتى إذا سمع زقزقة الطير على شجرة، اقترب منها في هدوء، ثم رفع أنبوبته، ونفخ أوداجه، فتتساقط العصافير على كتفيه غزيرة، ولا يتمالك نفسه عن الضحك سعيدا بحليته ومكره.

وفي صباح يوم. كان عائدا من فوق سور الحصن فرأى على قمة السور حمامة كبيرة تمد عنقها في الشمس، فتوقف عن السير، وأخذ يتطلع إليها. وكان بالجدار شق في هذا المكان. وصادفت أصابع جوليان قطعة من الحجر. فإذا هو يدور بذراعه. فيصيب الحجر الطائر، فيقتله، فيهوي لتوه في الخندق.

اندفع جوليان نحو الخندق مسرعا. وخدشت الأعشاب يديه، وأخذ ينقب في كل مكان، في خفة أكثر من خفة الجرو.

كانت الحمامة مهيضة الجناحين، تضطرب وهي معلقة في غصن شجرة من أشجار الزيتون. ثار الفتى لرؤيته هذا الإصرار على الحياة. فطفق يخنقها، وكانت نبضات قلبه تسرع مع انتفاضات الطائر، فتستولي على نفسه لذة وحشية عارمة، حتى إذا سكنت آخر خلجة منه، أحس الصبي انهيارا في قواه.

وفي المساء، أثناء العشاء، قال والده إن من واجبه في هذه السن أن يتعلم الصيد. ثم قام فأتى بكراسة خط قديمة، تشرح عن طريق السؤال والجواب كل ما في الصيد من متعة وتسلية. يظهر أستاذ فيها تلميذه على فن تربية الكلاب. واستئناس الصقور، ونصب الشراك، وكيف يعرف الأيل من رونه، والثعلب من آثار قدميه، والذئب من مواضع براثنه، ويوضح له خير الوسائل في اكتشاف مسالك الحيوان. وكيفية مطاردتها، وأين تأوي عادة وما هي أنسب الرياح. ثم يعدد له الأصوات، ويبين له الأصول في توزيع حصة الكلاب من القنيص.

فإذا استطاع جوليان أن يعيد على مسمع أبيه كل هذه الدروس عن ظهر قلب أمر له بسرب من الكلاب.

وكان السرب يتميز أولا بأربعة وعشرين كلبا سلوقيا من المغرب. أسرع في عدوها من الغزلان. ولكنها وشيكة الغضب. ثم سبعة عشر زوجا من الكلاب البريطانية ذات نقط بيضاء، على جلد أحمر، ثابتة الجأش، قوية الصدر، كثيرة العواء.

وقد خصص أربعون كلبا من ذوات البرائن القوية، والشعر الطويل الذي يشبه فراء الدببة. لمهاجمة الخنازير البرية، والمطاردات الخطيرة، أما الثيران الوحشية فقد وكل صيدها إلى كلاب ضخمة، أشبه في حجمها بالحمير: جلدها جمري اللون. وهي عريضة الظهر. منتصبة القوائم. وأما الكلاب الأسبانية. فكان شعرها الأسود يلمع كالحرير الأطلس، وكان نباح الجراء أشبه بهرير الكلاب الإنجليزية قصيرة القامة. وفي فناء منعزل كنت تسمع همهمة ثمانية من الكلاب الضخمة فطس الأنوف، وهي تحاول أن تتخلص من سلاسلها، وتحدق شزرا بعينيها، وهذا النوع من الكلاب يبعث منظره الرعب والهول، وهي تنقض على الفارس، فتأخذه من بطنه، ولا تبالي بمهاجمة السباع والوحوش لها.

وتطعم الكلاب جميعا خبز الحنطة، وتسقى في أوعية من الحجر، ويحمل كل منها اسما ضخما رنانا.

وكانت مجموعة الصقور تفوق سرب الكلاب، فقد استطاع السيد الكريم أن يحصل بالمال الكثير، على ذكور من صقور القوقاز، وعلى بعض من الصقور الآسيوية البابلية، وعلى عدد من البزاة الألمانية، والصقور السواحة، صيدت من فوق الصخور، على سواحل البحار الباردة، في بلاد

نائية. كانت الصقور تقيم في حظيرة غطيت بالقش، وقد ربط كل منها بالمجثم، حسب حجمه، ووضع أمامها كوم من العشب الأخضر، تنقل إليه من وقت إلى آخر لتنشيطها.

وأمر سيد القصر بصنع أكياس وشصوص، وفخاخ وغيرها من أدوات الصيد.

وكثيرا ما كان القوم يصطحبون في حملاتهم كلابا خاصة لقنص الطيور سريعة الانقضاض، فيتقدم بها سواسها خطوة خطوة، وينشرون في حذر شبكة واسعة، والكلاب صامدة راضية، ثم يحملها سائقها على العواء، فيطير السمان فتنقض عليه سيدات الضاحية ممن دعين للصيد مع أزواجهن — وكذلك الأطفال والوصيفات، فيأخذون الطير دون عناء.

وكانوا أحيانا يدقون الطبول لإخراج الأرانب البرية من جحورها، ويحفرون الأرض لتقع الثعالب فيها، وينصبون فخا فيطبق ملسنها على رجل الذئب.

غير أن جوليان كان يزدري تلك الحيل الساذجة، ويؤثر أن يخرج إلى الصيد بعيدا عن الناس، على صهوة جواده، ومعه بازيه، ويغلب أن يكون البازي دائما من نوع الصقور التانرية، ذات اللون الأبيض الناصع، فوق رأسه قلنسوة من الجلد، تعلوها خصلة من الريش، وفي جليه الزرقاوين تهتز جلاجل من ذهب كان يقف ثابتا على ذراع صاحبه بينما الحصان يعدو، والسهول تطوى. كان جوليان يطلقه فجأة بعد أن يفك قيده، فيرتفع الطائر منطلقا في الجو كالسهم، وهنالك ترى نقطتين يختلف حجمهما تدوران ثم تلتقيان، ثم تختفيان في أعلى السماء، وسرعان ما يهبط البازي وهو يمزق أحد الطيور، فيحط ثانية على قفاز صاحبه، وجناحاه ينتفضان.

وصاد جوليان على هذا النحو طير البلشون، والحدأة والغراب، والعقاب.

وكان جوليان مولعا، إذا نفخ البوق، يتتبع كلابه وهي تنحدر من فوق التلال، وتقفز من أعلى الغدران، وتصعد ميممة شطر الغابات، حتى إذا أخذ الأيل يئن متأثرا من عضات الكلاب، أطلق جوليان عليه سهمه، فأرداه قتيلا في الحال، ثم راح يتمع نفسه برؤية الكلاب الضخمة، وهي هائجة تنهش القنيصة، وقد قطعت إربا والدم لازال ينزف من جلدها.

وفي الأيام ذات الضباب، كان يتوغل في البرك متربصا للأوز، وكلاب الماء، والبط البري.

ومنذ الفجر، يتنظره عند عتبة الباب، ثلاثة من سواسه، ويطل الراهب الشيخ من الطاقة، ويحاول عبثا أن يثني الشاب بالإشارة عن عزمه، ولكن جوليان يمضي في طريقه لا يلوي على شئ. كان لا يعبأ بلظى الشمس، ولا بهاطل المطر، أو العواصف، يغترف بيديه ماء الينابيع، ويأكل وهو يخب فوق حصانه، تفاح البرية، حتى وإذا شعر بالتعب، أخذ قسطا من الراحة، في ظل شجرة من أشجار البلوط، ثم قفل راجعا، وقد انقضى من الليل نصفه، ملطخا بالدم والوحل، وانتثرت الأشواك في شعره، وفاحت منه رائحة الوحوش الضارية، تلك التي أصبح صنوالها، فإذا عانقته أمه، تقبل عناقها في فتور، وكأنه سابح في حلم، يفكر في أشياء بعيدة الغور.

قتل دببة بطعنات خنجره، ونحر ثيرانا بضربات فأسه، وقضى على الخنازير البرية برمحه، بل حدث أن وجد نفسه مرة أعزل إلا من عصا، فقاوم بها ذئابا جاءت تنهش رمما كانت ملقاة تحت إحدى المشانق.

وفي صباح يوم من أيام الشتاء، خرج قبل طلوع النهار، مزودا بكل أسلحة الصيد، على كتفه قوس، وفي قصعة سرجه جعبة من السهام، وخلفه كلبان قصيرا القوائم، وكانت خطوات حصانه الرتيبة تهز الأرض من تحته، والتصقت بمعطفه قطرتان من الصقيع، وهبت عليه عاصفة من ريح عاتية، وفجأة انكشف جانب من الأفق، وعلى ضوء السحر، أبصر جمعا من الأرانب تتواثب لاهية، قريبة من جحورها، وما هي إلا لحظة حتى انقض الكلبان على الأرانب، وقصما ظهورها.

ثم دلف إلى غابة، فلمح على طرف غصن ريكا بريا، تجمد من شدة البرد، ودفن رأسه في جناحيه ونام، فاستل جوليان سيفه، وطير به رجلي الديك، ثم مضى في سبيله، وترك الطائر طروحا على الأرض.

ولم تمض ساعات ثلاث حتى وجد نفسه على رأس جبل شاهق، بلغ من الارتفاع ما جعل السماء تبدو حالكة، وكانت أمامه صخرة أشبه بجدار مرتفع تنحدر مطلة على واد سحيق، وفي طرفها، وقف تيسان بريان يتطلعان إلى قاع الوادي، وكان جوليان أعزل من السهام، فقد خلف حصانه وراءه فخطر له أن ينزل إلى التيسين، وخلع نعليه، وزحف منحنيا في خفة، حتى وصل آخر الأمر، إلى التيس الأول، وطعنه بخنجره تحت أضلعه، وولى التيس الثاني هاربا، وقد استولى عليه الذعر، فألقى بنفسه في تلك الهوة من الوادي، وأسرع جوليان يريد أن ينقض عليه، فانزلقت قدمه اليمنى، وسقط فوق جثة التيس الأول، ووجهه يطل على الهوة السحيقة، وهو منبطح على الأرض مشور الذراعين.

ولما هبط إلى السهل، تقدم محاذيا نهرا تقوم على جانبيه أشجار الصفصاف، وكانت بعض الكراكي تطير على إرتفا قليل، وتمر من وقت لآخر فوق رأسه، فكان يبطش بها بسوطه، ولم يفلت واحد منها.

ومال الجو في خلال ذلك كله إلى الدفء، فأذاب صقيع الصباح، وطافت بالأرض سحب عريضة من الضباب، ثم ظهرت الشمس، فشاهد جوليان عن بعد بحيرة راكدة، صفحتها أشبه برقعة من الرصاص، وفي وسط البحيرة، حيوان لم يره جوليان من قبل، كلب ماء ذو أنف أسود. استطاع جوليان، رغم بعد الشقة، أن يدركه بسهمه، فيرديه قتيلا، ولكنه استشعر الحزن، لأنه لم يستطع أن يسلخ جلد ذلك الحيوان.

ثم أنساب في طريق قامت على جانبيه أشجار عالية، تشابكت قممها فحاكت أقواس النصر، عند مدخل الغابة، وفي تلك اللحظة وثب تيس خارجا من أكمة، وبرز ظبي في مفترق طريقين، وخرج عناق الأرض من حجره، ونشر طاووس ذيله على العشب، فأوردها جوليان حتفها جميعا، وسرعان ما ظهر غيرها من التيوس والظباء وعناق الأرض، والطواويس والشحارير، وغربان الزرع، والظربى، والثعالب، والقنافذ، والفهود، وغيرها مما لا حصر له من الحيوانات، يتزايد عددها كلما خطا خطوة، تدور حوله، وهي ترتعد خوفا، وتنظر إليه بعيون وديعة فيها رجاء وتوسل. ولكن جوليان لا يكف عن القتل، مرة يشد قوسه، وأخرى يمتشق سيفه، وثالثة يسدد خنجره، لا يفكر في شئ، فهو هنا للصيد، وفي بلد من بلاد الله، ومنذ وقت غير محدود، مسوق بحكم "وجوده" المحتوم، أما ما عدا ذلك، فإنه يتم بالسهولة التي تتم بها الأمور في الأحلام.

واستوقفه مشهد غريب، رأى أسرابا من الوعول، تملأ واديا، على شكل دائري، قد التصق بعضها ببعض، وقد عبق الضباب بأنفاسها، فبعثت الدفء في أجسادها.

وكاد الفرح أن يقتل جوليان، أملا منه في أن تتم مثل هذه المجزرة على يديه، فهبط من ظهر حصانه وشمر عن ساعديه، وأذخ يطلق السهام.

وما إن طار السهم الأول، حتى استدارت الوعول متلفتة، وتفتحت ثغرات في مجموعها، وتصاعدت أناتها، ووقع اضطراب عظيم في صفوفها، وكان جانب الوادي عاليا، ليس من اليسير الوثوب منه، وطفقت الوحوش تقفز داخل جدران الوادي، تحاول الفرار، وجوليان يصوب ويطلق السهام، التي كانت تتساقط عليها تساقط المطر خلال العاصفة، والوعول قد ثارت ثورتها، تتضارب يثب بعضها فوق بعض، تتشابك قرونها على شكل ربوة عريضة تنهار كلما تحركت.

ونفقت آخر الأمر ملقاة فوق الرمال، والزبد في مناخرها، وقد تفجرت أحشاؤها، وأخذت بطونها المنتفخة تهبط شيئا فشيئا. ثم ران السكون، وانعدمت الحركة.

وأوشك الليل أن ينسدل، وبدت السماء من وراء الغابة، وخلال الغصون، حمراء كأنها بساط من الدماء.

أسند جوليان ظهره إلى شجرة، وأخذ يتأمل بعين فاغرة فظاعة المجزرة، وهو لا يدري كيف استطاع أن يقدم على كل ذلك.

وفيما هو على هذه الحال، إذا به يلمح في الجانب الآخر من الوادي، عند طرف الغابة، وعلا أنثاه وصغيرها.

وكان الوعل أسود كبير الحجم، له ستة عشر قرنا وعشون أبيض، أما الأنثى فكانت شقراء اللون. كأوراق الخريف الذابلة، وهي مقبلة على العشب الأخضر، تأكل منه بينما أخذ صغيرها ذو الجلد المنقط، يرضع ثديها دون أن يعوقها عن سيرها.

زأر القوس مرة أخرى، فخر الصغير صريعا لتوه، وعندئذ بغمت أمه، وهي تتطلع إلى السماء، في صوت عميق مؤثر، كأنه صوت بشري، فثارت ثائرة جوليان، وطعن الأم في نحرها، فإرداها صرعى على الأرض.

ووقعت عين الوعل الضخم على جوليان، فانتقض واثبا، وسدد إليه جوليان آخر سهم معه، فأصابه في جبهته، وظل منغرزا فيها.

وكأن الوعل لم يشعر بوقع السهم، فقفز من فوق الجثتين، وأخذ يتقدم نحو جوليان، وأوشك أن ينقض عليه، ويبقره، وجوليان يرتد إلى الوراء في هول لا يوصف، وإذا بالحيوان العجيب يتوقف، ويحملق في جوليان، بعينين يتطاير منهما الشرر، يكتنفه جلال رب الأسرة، وتنبعث منه رهبة الحاكم المقتص، وصاح ثلاثا بينما أخذ ناقوس يدق من بعيد دقاته: "– ملعون! ملعون! ملعون أنت! أيها القلب الوحشي! سيأتي عليك يوم تقتل فيه أباك وأمك!" ثم ثنى ركبتيه، وأطبق في هدوء جفنيه، ومات.

وقف جوليان مذهولا، ثم أحس فجأة بالتعب يهد قواه واجتاحت نفسه غمرة من الاشمئزاز، واستولى على نفسه حزن شديد وأخذ جبينه بين يديه وراح يبكي مدة طويلة.

ضاع منه حصانه، وتركته كلابه، واكتنفته وحشة، كأنها تنذر بأهوال لا حد لها، فتولاه الذعر، وطفق يجري بين الحقول، وانساب مصادفة في طريق

لم يكد يسير فيه حتى وجد نفسه توا أمام باب القصر.

ظل الليل ساهدا، كلما اهتز المصباح المعلق، تراءى له شبح الوعل الأسود الضخم لا يفتأ يسمع نبوءته، وهو يجاهد نفسه ليقاومها. "لا! لا! لا يمكن أن أقتلهما!" ثم يطرق مفكرا: "ومع ذلك، فلو شئت؟. ..." ثم يأخذه الخوف من أن يوسوس له الشيطان بالرغبة في ذلك.

مضت ثلاثة شهور وأمه في أشد حالات القلق، تصلي كل يوم بجانب سريره بينما لا ينفك أبوه يذرع ردهات القصر وهو ينتحب. أرسل في طلب أشهر العلماء، فوصفوا له عددا كبيرا من العقاقير، وقالوا إن مرض جوليان نتيجة ريح مشئومة، أو رغبة في الحب، والفتى يهز رأسه ولا يجيب عن الأسئلة.

عادت إليه قواه، وخرج للتنزه في الفناء، وسار يسنده أبوه من ناحية، والراهب الشيخ من الناحية الأخرى.

ولما استرد صحته تماما، أصر على عدم الخروج إلى الصيد.

وأراد أبوه أن يدخل الفرحة على قلبه، فأهداه سيفا عربيا ضخما.

كان السيف معلقا في رأس أحد الأعمدة، ضمن شكة سلاح كاملة، وكان لابد للوصول إليه من سلم، وارتقى جوليان السلم، ولكن السيف، لشدة ثقله، أفلت من بين أصابعه، وسقط، وفي سقوطه، حف بعباءة والده عن كثب فشقها، وظن جوليان أن أباه قد قتل، فأغمي عليه.

ومنذ ذلك الحين وهو يخشى السلام، ويمتقع وجهه لرؤية أي نصل مجرد من غمده، وكان هذا الضعف مصدر حسرة في قلوب الأسرة جميعا.

وطلب الراهب الشيخ منه آخر الأمر، باسم الله والشرف والأجداد، أن يستأنف تدريبه على أعمال أبناء الأشراف.

وكان الفرسان من حاشية جوليان يلهون برمي الحراب، وسرعان ما اتقن جوليان هذا السلاح، فإذا رماه أنفذه في عنق زجاجة، أو حطم به أسنان مروحة هوائية، أو دق به مسامير الأبواب، على بعد مائة خطوة.

وفي مساء يوم من أيام الصيف، في تلك اللحظة التي يطمس الضباب فيها معالم الأشياء، جلس جوليان تحت عريش الحديقة، وفيما هو جالس، إذا به يلمح عن بعد في أقصى الحديقة جناحين أبيضين يرفرفان في مستوى سقف العريش، ولم يساوره الشك في أنه لقلق، فأطلق حربته.

ودوت صرخة عالية.

وسمع جوليان أمه، ورأى قلنسوتها ذات الأطراف الطويلة، قد تسمرت في الجدار. وفر جوليان من القصر، ولم يعد إليه إطلاقا.

(**٢**)

التقى بشرذمة من الأفاقين فانضم إليهم، وعرف حياة الجوع والعطش، وأصابته الحميات، ونهشته الحشرات وألف قعقعة السلاح في المعارك، كما ألف رؤية المرضى والموتى، ولفحت الريح جلده، وخشنت أطرافه من استعمال الأسلحة، وبز أقرانه بقوته وشجاعته، واعتداله وحكمته، فلم يجد أدنى مشقة في تولي قيادة فرقة من فرقهم.

كان في بداية كل معركة، ينتضي سيفه عاليا، يستنهض به جنده، فإذا جن الليل، ارتقى حبلا ذا عقد، يصعد به جدران الحصن، بينما تطوحه العاصفة، وتتساقط عليه لهب ماء النار فتلتصق بدرعه، وينصب عليه من شرفات الأبراج القار المغلي، والرصاص المنصهر. وكم اصطدمت الحجارة بترسه فشدخته، وانهارت به جسور لم تحتمل ما عليها من عديد الرجال، وأطاح مرة بضربة من سلاحه بأربعة عشر فارسا، وهزم في ميدان النزال كل من تقدم لمبارزته، وظن أكثر من مرة أنه ملاق حتفه.

ولكن عناية الله كانت دائما تنقذه. لأنه كان يذود عن رجال الكنيسة واليتامى والأرامل والشيوخ بوجه خاص. فإذا رأى عابر سبيل يسير أمامه، ناداه ليرى وجهه. خشية أن يقتله خطأ.

وانضوى تحت لوائه أجناس مختلفة من الفتيان المغاوير، فكنت ترى منهم عبيدا هاربين من الأسر، وفلاحين ثائرين على سادتهم، وأبناء سبيل لا يملكون شروى نقير. وتكوَن من هؤلاء جميعا جيش. وكبر الجيش، وذاع صيته. وصار الكل يسعى إليه.

فمرة يخف إلى نجدة ولي عهد فرنسا وملك انجلترا، ومرة يسرع إلى معاونة فرسان بيت المقدس، وشاه القرطيين، ونجاشي الحبشة، وامبراطور كلكوتا، وقاتل الاسكندنافيين الذين تغطي قشور الأسماك أجسادهم، والزنوج الذين يحملون التروس المصنوعة من جلد فرس البحر ويركبون حميرا حمراء اللون، وحارب هنودا لونهم في لون الذهب، يهزون من فوق تيجانهم سيوفا عريضة، أشد بريقا من المرايا، وهزم سكان المغاور وأكلة اللحوم البشرية، وعبر بلادا شديدة القيظ، يشتعل الشعر فيها من وهج الشمس، فيصبح

كالمشاعل، وجاب أصقاعا، تبلغ قسوة البرد فيها ما يجعل الأذرع تنخلع من الجسم وتسقط على الأرض، وطاف فأقطار كثيرة الضباب حتى لا يرى السائر فيها إلا أشباحا تتحرك.

واستعانت برأيه جمهوريات تأزمت أمورها، وكان جوليان يستدعي سفراءها ويحصل منهم على الموافقة على شروط لم يكن الوصول إليها مأمولا. وإذا ساء سلوك أحد الملوك، قصد إليه جوليان في الحال وعاتبه، وساعد شعوبا كثيرة في استرداد حرياتها، وأنقذ ملكات معتقلات في الحصون وهو، دون غيره، قد تمكن من قتل ثعبان ميلانو وتنين أوبربيراخ.

وكان امبراطور أو كسيتانيا قد انتصر على أعدائه، وتزوج أخت ملكهم، وأنجب منها بنتا، ثم تظاهر الملك برغبته في تقديم آيات الولاء للأمبراطور فقدم لزيارته، يصحبه عدد كبير من أفراد حاشيته، وهنالك هاجم حامية القصر وألقى بالأمبراطور في سرداب عميق، وأخذ يقسو في معاملته كي يبتز أمواله ،

وأسرع جوليان لنجدة الأمبراطور، وبدد جيش عدوه، وحاصر المدينة وقتل الملك المغتصب، وفصل رأسه عن جسده. ورمى بها كالكرة من فوق أسوار القصر. ثم أخرج الامبراطور من سجنه وأعاده إلى عرشه أمام جميع رجال القصر.

وأراد الأمبراطور أن يكافئه على صنيعه، فعرض عليه أموالا كثيرة تملأ السلال، ورفض جوليان أن يأخذ منها شيئا. وظن الامبراطور أنه يطمع في المزيد، فقدم له ثلاثة أرباع ما يملك من ثروة، وأصر جوليان على الرفض، فمنحه نصف ملكه، فشكره جوليان، وعندئذ بكى الامبراطور كمدا وحنقا،

وهو لا يدري كيف يظهر عرفانه بالجميل، وفجأة ضرب جبينه بيده، وأسر بكلمة في أذن أحد أتباعه وإذا بستار يرتفع، وتظهر فتاة خلفه.

كانت عيناها السوداوان تلمعان كمصباحين هادئين، وتفتر شفتاها عن إبتسامة ساحرة، وغدائر شعرها مشبوكة بالحجارة الكريمة التي ترصع ثوبها المنفرج، وتحت ردائها الشفاف، كان يبدو شباب جسمها، كانت جميلة ندية، مكتنزة، ممشوقة القوام.

أخذ الحب بمجامع قلب جوليان، وقد كان حتى وقتذاك لا يعرف من العيش غير حياة الطهر والعفة.

زفت إليه إبنة الامبراطور، وتسلم قصرا ورثته عن أمها، وبعد إنتهاء حفلات الزواج، أخذ جوليان زوجته، وتبادل الصهران ساعة الفراق، أسمى آيات الاحترام.

كان القصر مبنيا من الرخام الأبيض، على طراز عربي أسباني، فوق ربوة، في غابة مزروعة بأشجار البرتقال. وكانت أحواض الزهور تنحدر حتى شاطئ الخليج، حيث تكثر القواقع التي تتهشم تحت أقدام السائرين، وخلف القصر تمتد غابة على هيئة مروحة، والسماء لا يشوب زرقتها أية شائبة، والأشجار تتمايل كلما هف نسيم البحر، أو هبت ريح الجبال التي تسد الأفق.

وحجرات القصر غارقة دائما فيما يشبه ضوء الغلس، تنيرها الجدران المرصعة، وقباب القصر ترتفع من الداخل على دعائم عالية، رفيعة كعيدان البوص، تزينها رسومات بارزة تحاكي أعمدة الماء المتبلور في المغاور.

وكنت ترى نوافير مياه في قاعات القصر، وفسيفساء في الأفنية،

وجدرانا محلاة بأفريز من الأفواس، وآلاف الدقائق المعمارية، وفوق ذلك كله يسود القصر سكون شامل حتى لتسمع حفيف وشاح إذا هفا، أو رجع تنهد إلى صدر.

ونسي جوليان الحروب، وهو الآن يستريح، يحوطه شعب هادئ، ويفد عليه كل يوم جمع من الناس، يسجدون له ويقبلون يده، كما يفعل أهل الشرق.

ويقف جوليان بردائه الأحمر، مستندا إلى جدار النافذة، متذكرا أيام الصيد الماضية،. ... ما أشد ما يتمنى الآن أن يعدو في الصحراء ليصيد الغزلان والنعام: أو يتخفى وراء عيدان الخيزران يترصد الفهود، أو يجتاز الغابات المملوءة بالخراتيت، أو يصعد إلى أعلى الجبال، وأكثرها وعورة ليتمكن من إصابة الصقور، أو صيد الدببة البيضاء فوق تلال الثلوج.

وأحيانا يرى نفسه في الحلم، على صورة أبي الخليقة آدم، في وسط الفردوس تحوطه الحيوانات، فيمد يده ويبطش بها، أو يشاهدها تمر أمامه في صفوف إثنين إثنين، متتابعة وفقا لأحجامها، وتبدأ بالفيلة والأسود، حتى القاقم والبط، كما فعلت عند دخولها فلك نوح. وهو كامن في ظل غار، يرشقها بنبال لا تخطئ مرماها، ويقيم على هذه الحال والحيوانات لا ينقطع سيلها إلى أن يفيق من نومه، وهو يحملق شذرا فيما حوله.

ودعاه بعض الأمراء من أصفيائه، إلى الصيد معهم، فرفض الدعوة، وألح في الرفض، معتقدا أنه بهذا التكفير يبعد عنه ما أنذر به من شر، فقد خيل إليه، أن مصير والديه مرتبط بأمر الحيوانات التي يقتلها، وقاسى كثيرا من حرمانه رؤية والديه، وثقلت عليه وطأة رغبته، حتى ضاق بأمره.

وأرادت زوجته أن ترفه عنه، فكانت تأتي له بالراقصين والراقصات، أو تخرج معه إلى الحقول في حفة مكشوفة، ويستقلان مركبا ويقضيان الوقت في التطلع إلى الأسماك وهي تمرح في الماء الصافي كرقعة السماء، وكثيرا ما كانت تنثر على وجهه الورود، أو تجلس عند قدميه وتعزف له على قيثارة ذات أوتار ثلاثة، ثم تضع على كتفه يديها مشبوكتين وتقول له في صوت يغشاه الحياء:

– "ماذا بك يا سيدي العزيز ؟"

فكان لا يجيب، أو يجهش في البكاء، ثم أفضى لها آخر الأمر بسره الرهيب.

قاومت الأميرة هذه الفكرة، بحجة قوية ومنطق سليم، قالت إنه لمن المحتمل جدا أن يكون أبوه وأمه قد ماتا، ثم هبه بلقاهما يوما، فبأية مناسبة يرتكب جريمته الشنعاء؟

وما عسى أن يكون الدافع إليها؟ فليس ثمة ما يدعو إلى الخوف، ولا مناص من العود إلى الصيد.

وابتسم جوليان إذ كان يستمع لها، ولكنه لم يبد منه أي عزم على تحقيق أمنيتها.

وفي مساء يوم من شهر أغسطس، كانا في غرفة نومهما، وقد قصدت هي إلى مخدعها، بينما جثا هو يصلي، وإذا به يسمع ضباح ثعلب، ثم وقع خطوات خفيفة تحت النافذة، وتراءت له في الظلام أشباح حيوانات، وأحس إغراء شديد لم يستطع مقاومته، فتناول جعبة السهام...

وارتسمت الدهشة على وجه زوجه، فقال لها:

"أردت أن أنفذ رغبتك، وسوف أعود عند مطلع الشمس"

وخشيت رغم ذلك من أن يقع له حادث مشئوم، ولكنه طمأنها، وخرج وهو مدهوش من تقلب مزاجه.

ومضت فترة قصيرة، وجاء خادم يعلن عن قدوم مسافرين غريبين، يريدان مقابلة سيدة القصر ما دام السيد غائبا.

وفي تلك اللحظة دلف إلى غرفة النوم شيخ وإمرأة عجوز، تقوس ظهراهما، وغشيهما هباء الطريق، يرتديان ثيابا من الكتان، ويتكئ كل منهما على عصا.

تشجعا وقالا إنهما يحملان لجوليان أنباء عن والديه.

وانحنت الأميرة تسمع لهما.

ونظر كل من الشيخين إلى الآخر، ثم سألا هل لا يزال مقيما على حبهما وهل يرد ذكرهما على لسانه أحيانا؟

قالت: "نعم، لا ريب في ذلك!"

فصاحا: "نحن والداه". ثم جلسا وقد أنهكهما التعب، وأضناهما السفر.

وقدما الدليل على صحة قولهما، فذكرا علامات مميزة له كانت على جلده.

فقفزت الزوجة من فراشها، ونادت خادمها، وأمرت بإعداد الطعام لهما.

وبالرغم من شدة جوعهما، لم يستطيعا أن يأكلا شيئا، وكانت هي تراقب رعشة أيديهما وهما يتناولان الأكواب.

أمطراها أسئلة عن جوليان، وأجابت عن كل سؤال ولكنها حرصت على إخفاء ما كان يساوره من خواطر مشئومة خاصة بهما.

قالا إنهما ارتحلا عن قصرهما بعد أن يئسا من رجوعه، وأخذا يطوفان بالأرض منذ سنوات عدة، يسيران على هدى علامات مبهمة، ولكن الأمل لم يفارقهما، وقالا أنهما بذلا مالا كثيرا في دفع الضرائب المفروضة على عبور الأنهار، وفي الفنادق، والرسوم التي يجبيها الأمراء، وأتاوات قطاع الطرق، إلى أن نفدت نقودهما، وأصبحا الآن يتسولان. واستطردا يقولان إن ذلك كله أمر يهون، فبعد حين سيعانقان ابنهما! وراحا يشيدان بالسعادة التي هيأتها له زوجته، ويثنيان على دماثة خلقها، وكانا لا يملا من النظر إليها، وتقبيلها.

بهر ثراء الرياش صاحبينا، وجعل الشيخ يقلب نظره في جدران الغرفة، ووقع بصره على شعار امبراطور أو كسيتانيا معلقا على الحائط، فسأل عن سبب وجوده. فقالت: " إنه أبي! "

وتنهد الشيخ، وتذكر نبوءة البدوي، وفكرت الأم العجوز، فيما قال لها الناسك، فلا ريب أن المجد الذي يرفل فيه ابنها، إنما هو بشرى للمجد الأبدي. وكان ينبعث من شمعدان فوق المنضدة، نور يضئ وجههما، حيث كانا يجلسان.

إن منظرهما ليدل على جمال عظيم في شبابهما، فالأم لا تزال تحتفظ بشعرها كله، وقد تدلت خصلاته الملتصقة بجانبي وجهها، حتى أسفل خديها،

كأنها رقعتان من الثلج، وبدا الأب بقامته المديدة، ولحيته الكثة، كأنه تمثال من تماثيل الكنيسة.

دعتهما زوجة جوليان إلى عدم انتظاره، وأرقدتهما بنفسها في سريره، ثم أغلقت النافذة، فناما، وكان الصبح قد قارب الطلوع، وبدأت العصافير زقزقتها من خلف الزجاج.

إجتاز جوليان الحديقة وانساب في الغابة بخطى سريعة، مستمتعا بطراوة العشب، ورقة الهواء.

وكانت ظلال الأشجار تمتد فوق الخضرة، والقمر يترك أحيانا نقطا بيضاء، خلال الأشجار، ويتردد جوليان في سيره، ظنا منه أنه يرى بركة ماء، ويختلط سطح المستنقعات الهادئ بلون العشب، ويغمر المكان سكان شامل، ولا يكتشف جوليان أي وحش من الوحوش التي كانت منذ لحظات تهيم حول القصر.

ثم تكاثفت الغابة واشتد الظلام، وهبت نسمات من ريح ساخنة تبعث رائحتها الاسترخاء في البدن، وكان جوليان يغرز قدميه في أكوام من أوراق الشجر الذابل، ثم يستند إلى شجرة البلوط، ليلتقط أنفاسه.

وفيما هو كذلك، إذا بكتلة سوداء، تثب من خلف ظهره، فيرى خنزيرا بريا، ولكنه لا يتمكن من إعداد قوسه، ويحزن لذلك، كأن مصيبة قد حلت به.

وخرج من الغابة، فلمح ذئبا ينطلق محاذيا جانبا من السياج.

فأرسل سهمه، وتوقف الذئب عن السير، وتلفت نحوه، ثم واصل

طريقه، هو يخب في سيره، محافظا على الشقة بينه وبين جوليان، وكان يقف بين لحظة وأخرى، حتى إذا رأى السهم صوب إليه، عاد إلى الفرار.

طوى جوليان، على هذه الوتيرة، سهلا مترامي الأطراف، واجتاز تلالا من الرمال، ووجد آخر الأمر نفسه فوق هضبة تشرف على مساحة كبيرة من المدن. وقد تناثرت حجارة مفلطحة بين أطلال المقابر، وكان جوليان يتعثر بعظام الموتى، وهنا هناك صلبان نخرتها الديدان، وقفت ماثلة بشكل يبعث الأسى في النفس. وأخذت أشباح تتحرك تحت جنح الظلام المنتشر في المقابر، ثم برز قطيع من الضباع، مذعورة لاهثة، أقبلت عليه وبرائنها تدق الأحجار في سيرها، ثم راحت تشمه متثائبة، كاشفة عن أنيابها. فأخرج جوليان سيفه من غمده، فتفرقت الضباع حافلة في كل ناحية، وجعلت تعدو عدوها السريع الأعرج، إلى أن اختفت بعيدا وراء سحابة من الغبار.

ومضت ساعة، والتقى في أحد الوديان، بثور شرس هائج، قد صوب قرنيه إلى الأمام، وأخذ ينقب الرمل بحوافره، فقذفه جوليان بحربته، فجاءت في غببه، وتكسرت شظايا، كأنما الحيوان قد صنع من البرونز، وأغمض عينيه، وانتظر الموت، ولما فتحهما كان الثور قد اختفى.

إنهارت نفس جوليان من الخجل، فهناك قوة عظمى تحطم قوته، وانساب في طريق الغابة مرة ثانية.

إزدحمت الغابة بسيقان العليق، فراح جوليان يقطعها بسيفه، وانزلق نمس فجأة بين قدميه، وقفز من فوق كتفه والتفت حية حول شجرة الدروار تتسلقها.

وجثم بين أوراق الشجر، غراب وحشي المنطر، يحملق في جوليان،

وانبعثت في كل مكان من بين الغصون، ومضات عديدة واسعة، كأن السماء نثرت في الغابة كل نجومها. كانت تلك هي عيون القطط الوحشية. والسناجيب والبوم، والببغاء، والقرود.

أمطرها جوليان بسهامه، فكانت السهام تستقر بريشها، فوق أوراق الشجر، كأنها فراشات بيضاء. فرماها بالحجارة، فتساقطت الحجارة، ولم تمس شيئا. سخط جوليان على نفسه، وود لو ضرب رأسه، واستنزل اللعنات، وكاد يختنق حنقا وغيظا.

وأقبلت جميع الوحوش التي طاردها، ومثلت أمامه، وحوطته في دائرة ضيقة، وجلس بعضها القرفصاء، ووقفت الأخرى منتصبة القامة، وجوليان في وسطها، قد جمد الرعب أطرافه، وأصبح لا يقوى على الحراك، واستجمع كل إرادته، وبذل جهدا جبارا، وخطا خطوة واحدة، فإذا الطيور الجاثمة على الشجر تنشر أجنحتها، وكل من دب على الأرض، يحرك أطرافه، والجميع يسيرون برفقته.

سارت الضباع أمامه، والذئب والخنزير البري من خلفه، والثور عن يمينه يهز رأسه، والحية عن يساره تتلوى بين الحشائش، والنمرة قد احدوب ظهرها، وتقدمت في خطى رخوة، ووثبات عريضة، ومشى جوليان في هوادة بالغة، حتى لا يثير ثائرتها، ولمح ضربانا وثعالب، وحيات، وبنات آوى، ودببة، تبرز من غور الأخراش.

راح جوليان يجري فجرت وراءه: الثعبان يفح، والحيوانات الدافرة ترغي وتزبد، والخنزير البري يحك عقبيه بأنيابه، والذئب يدعك راحة يديه بشعيرات

أنفه، والقرود تقرصة متغامزة عليه، والنمس يتدحرج بين قدميه، وتطاول أحد الدببة عليه، فانتزع قبعته بظهر يده، وألقت النمرة في زراية، سهما لا يزال مغروزا في فمها.

كانت السخرية بادية في حركات الوحوش الهازئة، كأنما تأتمر لتثأر منه وهي تنظر إليه متغامزة بطرف عينها، وقد وفر سمعه طنين الحشرات، وصفعته ذيول الطيور، وخنقته أنفاس الوحوش، فسار متهدل الذراعين، مغمض العينين كالأعمى، لا يجد القوة الكافية ليصيح: "ارحموني".

وصاح ديك، فاهتز الجو، وتبعته ديكة أخرى، وكان الصباح، وعرف جوليان، من وراء أشجار البرتقال، قمة قصره.

ولمح على جانب أحد الحقول، وعلى بعد ثلاث خطوات، حجلانا حمراء تطير قريبة من عيدان القمح الحافة، فخلع عباءته، وألقاها على الطير، كما تلقي الشباك، ولما أزاحها، لم يجد غير واحد منها، وقد مات ونتن من دهر طويل.

أثار هذا الفشل ثائرته أكثر من أي شئ مضى، فعاوده تعطشه للقتل وما كان ليتردد في البطش بأي إنسان يلقاه، إذا لم يصادف وحشا يشبع بقتله رغبته.

وارتقى أسطح الحديقة الثلاثة، ودفع الباب بقبضة يده، ولكنه تمثل وهو في أول الدرج صورة زوجته الحبيبة، فهدأت ثائرته، وفكر في أنها لابد الآن نائمة، وأنها ستفاجأ بحضوره.

خلع خفيه وأدار المزلاج بهدوء، ودلف إلى الحجرة. كانت ألواح الزجاج المكسوة بالرصاص، تنشر العتمة على ضوء الفجر الباهت. وتعثرت

قدم جوليان بملابس ملقاة على الأرض واصطدم على بعد خطوتين بصوان، وكانت أدوات الأكل لا تزال موضوعة عليه.

ثم قال إنها لا ريب قد تناولت طعامها. وتقدم نحو السرير وقد لفه الظلام في قاع الغرفة، ولما صار بجانبه، مال يقبل زوجته، وانحنى على الوسادة، وكان يرقد عليها رأسان وأحس لحية تلمس فمه.

إرتد إلى الخلف، وقد ظن بنفسه مسا من الجنون، ولكنه عاد ودنا من السرير، وتحسسه بيديه، فوقعت أصابعه على شعر بالغ الطول، ثم مرر يده مرة أخرى على الوسادة، ليدخل في روعه أنه على خطأ، لا! إنها لحية، ليس في ذلك من شك، هذا رجل، رجل يرقد مع زوجته!

عصف به غضب لا حد له، وهجم عليهما بخنجره، وهو يهتز مرغيا مزبدا يصرخ كما تصرخ الوحوش الكاسرة. ثم توقف ساكنا. ولم تبدر من القتيلين أدنى حركة، بعد أن أصابت الطعنات قلبهما، وأنصت جوليان إلى حشرجة كل منهما، وهما يعالجان الموت معا، في نفس الآونة، وفيما كان شهيقهما آخذا في الهبوط رويدا رويدا، كان هناك صوت آخر، يقبل من بعيد، غير واضح في أوله، ويمتد عويله. كلما أخذ يدنو، ثم يعلو فيصبح مروعا، ويعرف جوليان في هذا الصوت بغوم الوعل الأسود الضخم، فيستولي عليه ذعر عظيم.

وبينا هو يتلفت خلفه، تراءى له في إطار الباب، شبح زوجته، تحمل مصباحا في يدها.

جذبها صوت الجريمة إلى الغرفة، وبنظرة شاملة أدركت ما وقع، فولت هاربة من بشاعة ما رأت، وسقط المصباح من يدها.

وتناوله جوليان.

رأى أباه وأمه أمام عينيه، مستلقيين على ظهريهما، وفي صدر كل منهما ثقب، وعلى وجهيهما مسحة من الرقه والجلال، وبديا كأنهما يطويان سرا سرمديا. وتناثرت قطرات الدم، وانتشرت بقع منه على بشرتهما البيضاء، وعلى أغطية السرير وعلى الأرض، وجرت فوق صليب للمسيح مصنوع من العاج، معلق في زاوية من الحجرة. وسقطت أشعة الشمس في تلك اللحظة على الزجاج فانعسكت أشعتها القرمزية، وأضاءت هذه البقع الحمراء، وضاعفت عددها، ونشرتها في كل أرجاء البيت، تقدم جوليان نحو القتيلين، وهو يريد أن يدخل في روعه، أن ما حدث لا يمكن أن يقع، ويقول في نفسه، إنه أخطأ الظن وأن هناك أحيانا من التشابه بين الناس ما يعجز الإنسان عن تفسيره. وانحنى أخيرا على الشيخ يريد أن يراه عن كثب، فوجد الجفنين غير مطبقين، وبينهما حدقة معدومة الحياة، وأحس نارا تلسعه. ثم انتقل إلى الجانب الثاني من الفراش حيث يرقد الجسد الآخر، وكان الشعر الأبيض يحجب جزءا من الوجه، ومرر جوليان يده بين الضفائر، ورفع الرأس وراح يحملق فيه، وقد تصلبت ذراعه الممدودة، وهي تحمل الرأس في طرفها. بينما أمسك المشعل باليد الأخرى، فأضاء وجهه، وكانت قطرات الدم تنضح من الحشية، فتتساقط واحدة إثر الأخرى على أرض الحجرة.

فإذا مضى النهار، ذهب إلى زوجته، وقال لها بصوت يغاير صوته، يأمرها بادئ ذي بدء ألا ترد عليه جوابا، وألا تقترب منه، بل لا تنظر إليه، بعد اليوم، وعليها أن تنفذ أوامره، التي لا رجعة فيها، وإلا نزلت اللعنات بها.

أمر أن تتم المراسيم الجنائزية وفقا للتعليمات التي رسمها في كتاب أودعه مركع الصلاة في حجرة الضحيتين. وهو تارك لها قصره، وخدمه، وكل ما يملك حتى ثيابه التي على جسده، وخفيه، وستجد كل تلك الأشياء متروكة في أعلى الدرج.

لقد أتاحت هي للجريمة أن ترتكب، ولكنها كانت في ذلك منفذة لإرادة الله، وعليها أن تصلي من أجل روحه، إذ لم يعد له بعد اليوم وجود.

دفن الشيخان في محفل عظيم، في كنيسة أحد الأديرة، على مسيرة ثلاثة أيام من القصر. وسار خلف الموكب، بعيدا عن جميع المشيعين، ناسك أسدل غطاء مسموحة، ولم يجترئ أحد على التحدث إليه.

حضر الصلاة وهو منبطح على وجهه وسط عتبة باب الكنيسة، وقد شبك ذراعيه على هيئة صليب، ودفن رأسه في التراب.

وبعد أن دفن الشيخان في قبرهما، شاهد الحاضرون الناسك ينساب في طريق نحو الجبل، يتلفت وراءه أكثر من مرة، ثم يختفي آخر الأمر.

(**٣**)

راح يضرب في الأرض متكففا.

يبسط يده لمن يقابله في الطريق من فرسان، ويقترب من المزارعين خاشعا راكعا، أو يقف بفناء دار وراء السياج، فلا يسع الناظر إلى هذا الوجه البالغ الأسى، إلا أن يجود عليه بالصدقات.

وروى قصته إمعانا في إذلال نفسه، ففر الجميع منه، وهم يرسمون علامة الصليب، وإذا مر بقرية وعرفه أهلها، أوصدوا الأبواب في وجهه، وصاحوا به مهددين، ورجموه بالحجارة، وأكثرهم رحمة به، كانوا يضعون على حافة النافذة إناء من طعام، ثم يسدلون الطنف حتى لا يروه.

نبذه الجميع، فصار يجتنب الناس، وجعل يطعم من جذور الأشجار، والنباتات، والثمار البرية، والقواقع، يتلقطها وهو يسعى فوق التلال.

ويقف أحيانا عند منحنى ربوة، فيرى تحته خليطا من السطوح المكتظة ورؤوس قباب من الحجر، وجسورا وحصونا، وطرقا داكنة متشابكة، يصل منها إلى سمعه ما تضج به من عجيج لا ينقطع.

وتدفعه حاجة الاختلاط بحياة الآخرين، إلى النزول إلى المدينة، ولكن ما يلوح على الوجوه من وحشية، وما يملأ جوها من ضوضاء المصانع، وما يبدو في أحاديث أهلها من فتور وعدم اكتراث، كل ذلك كان ينزل بقلبه نفورا ويأسا، وفي أيام الأعياد، عندما تدق أجراس الكنائس، وتبعث منذ الفجر البهجة والمرح في نفوس السكان جميعا، كان جوليان ينظر إليهم، وهم يتركون دورهم، ويقبلون على حلبات الرقص في الميادين، ثم يشاهد عند مفترق الطرق مشارب الجعة، وأمام بيوت الأمراء، طنافس الحرير الموشي، فإذا جاء المساء، تطلع من خلال زجاج النوافذ في الطوابق السفلى من المنازل، فرأى الموائد الطويلة قد مدت للأسرة كلها، وجلس حولها الأجداد يحملون على حجورهم أحفادا صغارا، فتخنقه العبرات، ويعود إلى الريف حيث أتى.

وكان يتطلع بعيون والهة إلى مهار الخيل تمرح فوق العشب، وإلى الطيور تجثم في أوكارها، وإلى الحشرات تحط على الأزهار، فإذا دنا منها، ابتعدت عنه، وطارت مسرعة، واختفت مذعورة.

سعى چوليان إلى الأماكن المنعزلة، ولكن الريح كانت تحمل إليه ما يشبه شهيق الموت، وقطرات الندى وهي تتساقط، تذكره بقطرات أخرى أشد ثقلا ومرارة، والشمس في كل مساء، تنشر الدماء في ثنايا السحب، وفي كل ليلة يرى في الحلم وقائع جريمته تسرد أمامه.

صنع لنفسه مسحا به إبر من حديد، وارتقى زاحفا على ركبتيه كل تل بنيت فوق قمته كنيسة، غير أن تلك الفكرة القاسية كانت تحيل بهاء المعابد في عينه سوادا، وتعذبه عذابا أليما، لما يلقاه من عناء النفس والتكفير عن جرمه.

لم يثر على الله الذي كتب عليه أن يقترف ما اقترفه، ومع ذلك، كان شعوره بارتكاب الجريمة، يعصر نفسه حسرة ويأسا!

كره نفسه كرها دفعه إلى الرغبة في التخلص منها، فخاض في سبيل ذلك أخطارا وأخطارا، أنقذ كسيحين من لهب النيران، واستخلص أطفالا سقطوا في لجج البحار، فلفظته الأعماق، وأبقت عليه النيران.

وانصرمت الأيام دون أن يسكن عذابه، لقد ثقل عليه حتى لم يعد يحتمله، وعزم جوليان على أن يضع حدا لحياته.

وقف ذات يوم بحافة نافورة من المياه ومال برأسه، يسبر غور الماء، فإذا بشيخ يظهر أمامه، قد بدت عظامه من فرط هزاله، له لحية بيضاء، وهيئة يرثي لها، لم يعرف جوليان من ذلك الشيخ، ولكنه تذكر في شئ من الغموض

صورة شبيهة بهذا الوجه تذكر صورة أبيه، فانطلقت منه صرخة، ومن ذلك اليوم، لم يعد يفكر جوليان في الانتحار.

جاب أقطارا كثيرة، وهو على هذه الحال، يرزح تحت عبء تلك الذكرى الأليمة، حتى وصل به السير إلى نهر، يتعرض عابره لأشد الأخطار، وذلك لعنف تياره، وامتلاء ضفتيه بالطمي الذي يمتد مسافات طويلة، ولم يكن أحد يجرؤ منذ زمن بعيد اجتيازه.

تلفت خلفه، فلمح قاربا قديما، قد اختفى بين عيدان البوص، ولم يظهر منه إلا جزؤه الأمامي، وأمعن جوليان النظر فعثر على مجدافين، وقفزت عندئذ إلى ذهنة فكرة: هي أن يكرس حياته لخدمة الآخرين.

فأقام أول ما أقام على ضفة النهر ما يشبه ممرا، يعين على الهبوط حتى مجرى الماء، وقد تكسرت أظافره، وهو يحرك الصخور ويحملها على بطنه لينقلها عن مكانها، كان ينزلق في الوحل، ويغوص فيه، وكاد يلقي حتفه غير مرة.

ثم أصلح القارب بحطام بعض السفن، وبنى لنفسه كوخا صغيرا، من الطين وجذوع الأشجار.

أقبل الناس على هذا المعبر بعد أن عرفوه، فكانوا ينادون جوليان، ملوحين له بالأعلام، فيثب سريعا إلى قاربه، وكان القارب ثقيلا شديد الثقل، فضلا عما يجلب العابرون معهم من أمتعة وأحمال مختلفة، إلى جانب الدواب التي كانت يحفل خوفا، فتزيد من زحمة المركب واضطرابه. ولم يكن يتقاضى جوليان أجرا على تعبه، فكان بعض الراكبين يقدمون له بقايا من

الطعام يأخذونها من خرجهم، أو شيئا من ثياب بالية ليسوا بحاجة إليها. وكان بينهم أشخاص، شرسون، ينتهكون المقدسات، ويرفعون بالسباب أصواتهم، فينهاهم جوليان ويحاول في هوادة ولين أن يردهم عن غيهم، فيقابلونه بالشتائم، فيباركهم قانعا راضيا.

ولم يكن يملك من الأثاث غير نضد صغير، ومقعد قصير، ومرقد من أوراق الشجر الذابلة، وثلاثة أكواب من الصلصال، وكان بالجدار فتحتان بمثابة نافذتين، ومن إحدى النواحي كانت العين تقع عل سهول جدباء، تمتد حتى مرمى البصر، تنتشر على سطحها هنا وهناك برك باهتة، بينما يجري النهر أمامه، دافعا أمواجه إلى الخضرة. وفي أيام الربيع تنبعث من الأرض الرطبة رائحة نتنة، وتهب ريح عاصفة، فتثير زوابع من تراب، ينفذ إلى كل مكان ويحيل الماء طينا، بل يستقر في الفم، تطحنه الأسنان، وتنتشر بعد ذلك سحب من البعوض، لا ينقطع طنينها ولا تكف لدغاتها ليلا أو نهارا، ثم تأتي أيام الجليد البالغة في قرها، فيصبح كل شئ صلبا كالأحجار، ويشعر الإنسان والحيوان برغبة عارمة في أكل اللحوم.

كانت تمضي شهور طويلة لا يرى جوليان فيها إنسانا، فيطبق عينيه في غالب الأحيان، ويحاول عن طريق الذاكرة، استعادة أيام صباه، فيتراءى له فناء قصر، به كلاب الصيد تنتظر على عتبة الباب، وخدم في قاعة السلاح، وتحت عريش من غصون الكرم، وقف صبي ذهبي الشعر بين شيخ يتدثر بالفراء، وسيدة تضع على رأسها قلنسوة عالية رفيعة، ثم تنقلب الرؤيا إلى جثتين هامدتين، فينبطح جوليان على بطنه فوق فراشه ويردد باكيا:

- "آه! يا لأبي المسكين! يا لأمي التعيسة! يا لأمي التعيسة"

ثم تأخذه سنة من النوم، ولكن الرؤى المشئومة لا تفتأ تقضي مضجعة.

وفيما هو نائم، ذات ليلة، خيل إليه أنه يسمع صوتا يناديه، فصاح قليلا، فلم يتبين إلا هدير الأمواج:

ولكن الصوت عاد يناديه:

- جوليان.

كا الصوت يصدر من الضفة الأخرى، وبدا الأمر لجوليان غريبا، فبين الضفتين شقة عريضة.

ونادى الصوت مرة ثالثة:

- جوليان.

وكان لهذا الصوت المرتفع رنين كرنين أجراس الكنيسة.

أشعل جوليان مسرجته م وخرج من الكوخ، وكانت عاصفة هو جاء تهز أركان الليل، والظلمة حالكة، تمزقها بين الفينة والفينة ومضات الزبد فوق الأمواج المتلاطمة.

تردد جوليان لحظة ثم فك حبال القارب، فهدأت ثائرة الماء في الحال، وانسابت المركب فوقه حتى لمست الضفة الأخرى، وكان هناك رجل ينتظر.

كان مدثرا بثوب ممزق من الكتان وجهه أشبه بقناع من الجبس، وعيناه

أشد أحمرارا من الجمر، ولما أدنى جوليان منه مصباحه، لاحظ أن برصا بشعا يغشى جسده كله، ولكنه يبدو في وقفته مهيبا له جلال الملوك.

وما أن دلف إلى المركب حتى ماءت بحمله، وغاصت بصورة خارقة، فهزها، فعادت تطفو على صفحة الماء، وأخذ جوليان عندئذ في التجديف.

وكلما ضرب المجداف في الماء، رفع الموج المنحسر مقدم المركب، والماء يجري حولها ثائرا، أشد سوادا من الفحم، تارة ينفتح أغوارا، وتارة يرتفع جبالا، تقفز المركب فوقها، ثم تهبط إلى الأعماق، وتدور حول نفسها، تلعب بها الرياح.

هذا وجوليان يميل بجسمه، وينشر ذراعيه، ويلوي قدميه، ويرتمي متقوسا إلى الوراء، ليستجمع قوته، والبرد يلسع يديه، والمطر يتسرب في ظهره، وشدة الهواء تخنقه، حتى تعب من التجديف، وسارت المركب على غير هدى، لكنه أدرك أن هناك شيئا عظيما، وأن هناك أمرا لا يمكن عصيانه، فاسترد مجدافيه، وراح يضرب في الماء، فكان دوى العاصفة لا يقطعه إلا صوت المجداف.

وكان المصباح الصغير يضئ أمامه، تحجب ضوءه بين اللحظة والأخرى طيور عابرة، ولكنه يرى دائما حدفتي الرجل الأرص الذي وقف منتصبا في آخر السفينة، كالعمود لا يتحرك.

واستمرت الحال مدة طويلة، بالغة الطول!

ولما وصلا إلى الكوخ، أغلق جوليان الباب، فإذا الأبرص جالس على المقعهد، وقد انحسر عنه غطاؤه، كأنه الكفن، إذ سقط حتى خاصرته، وكشف عن كتفيه وصدره وذراعيه النحيلتين، وقد غشيتها نقط من يثور ذات

قشور، وامتلأت جبهته بتجاعيد شديدة، وفي موضع الأنف بدت حفرة على نحو ما نرى في هيكل عظمي، وانبعثت من بين شفتيه الضاربتين إلى الزرقة، أنفاس كثيفة كالضباب، كريهة الرائحة.

قال: "أنا جوعان".

فأعطاه جوليان ما كان يملك من طعام: قطعة قديمة من دهن الخنزير، وكسر من الخبز الأسود.

وما أن أتى عليها، حتى ظهر على المنضدة والجفنة، ومقبض السكين، نفس البقع التي كانت ترى على جسده.

ثم قال: "أنا ظمآن!"

فذهب جوليان وأحضر جرته، وما أن تناولها حتى انبعث منها أريج، انشرح له صدر جوليان، وامتلأت خياشيمه، كان في الجرة خمر! فيا لها من لقية! ولكن الأبرص مد ذراعيه، وبجرعة واحدة أفرغ ما في الجرة كلها.

ثم قال: "أحس بردا!"

فأشعل جوليان بشمعته حزمة من نبات السرخس، في وسط الكوخ.

وأقبل الأبرص يتدفأ، جالسا القرفصاء، وقد سرت رعدة في جميع أطرافه وبدا عليه الوهن، فلم تعد عيناه تومضان، وغثت قروحه، وغمغم بصوت لا يكاد يسمع قائلا: "سريرك!".

ساعده جوليان في هدوء على الزحف إلى السرير، وأراد أن يغطيه، فنشر عليه شراع مركبه.

كان الأبرص يئن، وانحسر جانبا فمه عن أسنانه، وأخذ صدره ينتفض في حشرجة متصلة، وكلما شهق، غاصت بطنه حتى لامست فقرات ظهره.

ثم أطبق جفنيه وقال:

– "إنني أشعر كأن ثلجا يطوي عظامي! إقترب مني!

فأزاح جوليان الغطاء، واستلقى على أوراق الشجر اليابسة، قريبا منه، جنبا إلى جنب.

أدار الأبرص رأسه وقال:

– "إخلع ملابسك لأشعر بحرارة جسمك!"

خلع جوليان ثيابه، حتى بدا عاريا كما ولدته أمه، ثم عاد إلى مكانه في الفراش، وكان يحس بجلد الأبرص على فخذه، باردا كجلد الثعبان، خشنا كالمبرد.

وحاول جوليان أن يشجعه، فكان الأبرص يرد عليه لاهثا،: "آه سأموت!.... إقترب! أدفئني! ليس بيديك! لا بل بجسدك كله!"

فغطاه جوليان بجسده تماما، ملتصقا به، فمه على فمه، وصدره على صدره.

وعندئذ شده الأبرص إليه وتألقت في الحال عيناه تألق النجوم، واستطالت ضفائر شعره كأشعة الشمس وانبعثت من أنفه أنفاس لها أريج الورد، وتصاعدت من الموقد سحب من البخور، وطفقت الأمواج تغني طربا، وراح جوليان في غيبوبة، ونفسه تنعم بفيض من النشوة، تغمرها فرحة لا يعرفها

البشر، بينما أخذ الرجل الذي تحتويه ذراعاه، يكبر ويكبر، شيئا فشيئا، حتى لمست رأسه وقدماه جدارى الكوخ وطار السقف، وانبسطت صفحة السماء، وصعد جوليان في الفضاء الأزرق، وجها لوجه مع السيد المسيح، الذي رفعه معه إلى جنته:

تلك هي قصة القديس جوليان، راعي المسافرين، كما نجدها على وجه التقريب، مصورة على زجاج نافذة، في كنيسة من كنائس بلدتي.

هيروديا

"..... ولن تكفي حجارة الأرض لرجم الزانية!"

"إن اليهود ليقبلون كل سيد، وهم عاجزون تماما عن تكوين وطن لهم."

"من قصة "هيروديا""

(١)

تقوم قلعة ما خايروس شرقي البحر الميت، فوق ربوة من حجر البازلت، على هيئة مخروط هندسي، تحوطها وديان أربعة، اثنان على جانبيها، وثالث أمامها، والرابع يمتد بعيدا عنها. وتراكمت المنازل عند قاعدتها، داخل جدار دائري، يتدرج مع انحدار الأرض وارتفاعها. ويصل المدينة بالحصن، طريق متعرج، شق وسط الصخور، ويبلغ ارتفاع الأسوار عشرين ذراعا، بها عدد كبير من الزوايا، في أطرافها مشارف، وهنا وهناك أبراج كأنها الزهور المرصعة في هذا التاج الصخري المعلق في الفضاء.

وكان بداخل الحصن قصر قد زينته أبواب عريضة، يغطيه سطح حوله حاجز من خشب الجميز، وفيه قوائم نصبت عليها مظلة.

وذات يوم، والنهار على وشك الطلوع، أقبل الحاكم الروماني هيرود أنتيباس على شرفة السطح، وأسند مرفقه وأخذ يتطلع إلى ما أمامه.

بدأت الجبال التي تقع تحتة مباشرة، تكشف عن قممها، بينما لا يزال

معظمها غائصا في الأغوار يلفه الظلام، وطاف بالجو ضباب، ما لبث أن تمزق، فانجلت سواحل البحر الميت. ونشر الفجر وهو ينزغ من وراء القلعة حمرته، فأضاء رمال الشاطئ والتلال والصحراء، وفيما وراء ذلك، ترى كل جبال فلسطين، وقد مالت تحت الضوء سفوحها الخشنة الرمادية اللون. ويرى "انجاري" في الوسط بمثابة خط أسود، واستدار "حبرون" في القاع على هيئة قبة، وظهرت أشجار الرومان في "أسكول"، وكروم "سوريك"، وحقول " كرمل" المزروعة بالسمسم، وأشرف برج "انطونيا" بهيكله المكعب الصخر على معالم بيت المقدس. وأشاح الحاكم بوجهه ليمعن النظر عن يمينه في نخيل "أرمحه"، ثم فكر في مدته الأخرى من بلاد "الجليل" مثل " كفر ناحوم" و"عين دور" و"الناصرة" و"طبرية"، إذ قد لا يرجع إليها بعد اليوم. وها هو ذا نهر الأردن ينساب على سطح هذا السهل القحل، والأرض بيضاء تتألق كغلاف من الجليد، وقد بدت البحيرة في تلك الآونة لا زوردية اللون، وشاهد أنتيباس في الطرف الجنوبي من ناحية اليمن ما كان يخشى رؤيته: رأى خياما سمراء مبعثرة هنا وهناك ورجالا يحملون الرماح، يتجولون بين صفوف الخيل، والنيران قد بدأت تخمد كأنها ألسنة لهب على وجه الأرض.

كانت تلك جيوش ملك العرب، الذي طلق أنتيباس ابنته ليتزوج من "هيروديا" امرأة أخيه، الذي يقيم في روما دون أن يطمع في حكم أو سلطان.

وكان أنتيباس ينتظر نجدة من الرومان، وقد استولى عليه قلق شديد لتأخر مجئ "فيتيليوس" حاكم سوريا. هل دس له "أجريبا" لدى الأمبراطور؟ لا شك في أن أخاه الثالث فيليب، حاكم "باتانيا"، يعد عدته سرا. لقد سئم اليهود عبادته للأوثان، كما ضاق الجميع بحكمه، وهو يتأرجح بين أمرين: أن

يهادن العرب، أو يعقد حلفا مع الفرس. وقد دعا اليوم رؤساء جيشه، وحكام أقاليمه، وأعيان الجليل، إلى وليمة كبيرة، بحجة الاحتفال بعيد ميلاده.

وراح يستوضح بنظر حديد جميع الطرق، فرآها خالية، والنسور تطير فوق رأسه، والجند على طول السور، يغطون في النوم مستندين إلى الجدران ولا شئ يتحرك في القصر.

وفجأة جاء صوت من بعيد، كأنه منبعث من أغوار الأرض، شحب له وجه الحاكم، فمال بجسمه لينصت، فاختفى الصوت، ثم عاد ثانية، فصفق الحاكم بيديه وصاح قائلا: "مناحيا"!!.

فحضر رجل عار حتى منطقته، شبيه بالمدلكين في الحمامات، طويل القامة، طاعن السن، بادي العظام، وتتدلى على فخذه سكين في جراب من البرونز، عريض الجبين، زاد جبينه عرضا شعره المردود إلى الخلف بواسطة مشط، وقد ذهب الوسن بلون عينيه، ولكن أسنانه كانت شديدة اللمعان، وأصابع قدميه ترتكز بخفة على البلاط، وفي جسمه كله ليونة القرد، وعلى وجهه سكون المومياء.

سأل الحاكم: "أين هو؟"

وأجاب "مناحيا" وهو يشير بإبهامه إلى شئ خلفهما: – هنا! كما كان!"

قال الحاكم: "لقد ظننت أني أسمعه!"

وتنفس أنتيباس الصعداء، ثم استفسر عن "يهو كنعان"، وهو الذي يلقبه اللاتينيون بيوحنا المعمدان. وعاد فسأل عن الرجلين اللذين صرح بدخولهما إلى

سجنه في الشهر الماضي، وهل عرف منذ ذلك الوقت الغرض من زيارتهما؟

فأجاب "مناحيا":

"لقد تبادلا معه عبارات خفية، كما يفعل اللصوص عندما يلتقون في المساء بين مفترق الطرق، ثم قصد الاثنان إلى أعلى الجليل، قائلين إنهما سوف يعودان بنبأ عظيم!"

أطرق أنيباس، ثم صاح بلهجة المرتاع: "أبق عليه! أبق عليه!"

ولا تدع أحدا يدخل إليه! أغلق الباب جيدا! وغط البئر! فيجب ألا يظن أحد إطلاقا أنه لا يزال حيا" !

وكان مناحيا قد نفذ هذه الأوامر قبل أن يتلقاها لأنه كان يمقت اليهود، شأن السامريين جميعا، وكان يهو كنعان يهوديا.

ومنذ أن ولى "هيرقان" ملكا، لم يعد لعبد "جاريزيم" وجود، بعد أن اختاره موسى ليكون مجمعا لبني اسرائيل، أما هيكل بيت المقدس، فكان يثير حفيظتهم، لما لحقهم فيه من مهانة، وما سيموا فيه من ظلم لا حد له، فقد اقتحمه مناحيا، ولوث محرابه بعظام الموتى، ثم ولى هاربا، أما رفاقه فكانوا أبطأ منه حركة، فقبض عليهم، وضربت أعناقهم.

لمح مناحيا المعبد بين تلين، وكانت جدرانه المبنية من الرخام الأبيض، وأسطحه ذات الخطوط الذهبية، تتألق في أشعة الشمس. كان أشبه بجبل من النور، لا يمت للبشر أو للأرض بسبب، يطغى على كل ما حوله بروعته وعظمته.

بسط مناحيا ذراعيه ناحية "صهيون"، ووقف منتصب القامة، مشيحا بوجهه، مطبقا قبضتيه، ثم راح يصب اللعنات، ظنا منه أن للكلمات قوة نفاذة.

وسمع له أنتيباس، ولم يبد أي تبرم.

واستطرد السامري يتحدث عن يهو كنعان، قائلا:

"ينتابه الاضطراب أحيانا، وتستولي عليه الرغبة في الهرب، ويراوده الأمل في الخلاص. وأحيانا تراه هادئا كالوحش المريض، أو تسمعه يردد وهو يتجول في الظلام: "وماذا يهمني ؟ فلابد أن يهون شأني ليعظم شأنه"!.

ونظر كل من أنتيباس ومناحيا إلى الآخر. ولكن الحاكن كان قد أنهكه التفكير.

كل ما حوله يثير قلقه: جميع تلك الجبال التي تحوطه وكأنها أمواج عالية، قد استحالت إلى صخر، وتلك الأغوار الحالكة على جانب صخور الساحل، والسماء الشاسعة الزرقاء، وضوء النهار الساطع، والأعماق البعيدة الغور. وغمرت الحسرة نفسه وهو يتطلع إلى الصحراء، فهناك الاضطرابات تجتاح أراضيه، وهناك مسارحه وقصوره المهدمة. وحملت إليه الريح الساخنة رائحة الكبريت ومعها أنفاس المدن الملعونة، المدفونة في أسفل الوادي، مثلها مثل السواحل تحت ضغط المياه الثقيلة. وروعت فكره مظاهر هذا الغضب الذي يفوق قوة البشر، فظل فتكئا بمرفقيه على حاجز الشرفة، ثابت العينين، وخداء بين يديه. وفيما هو كذلك، إذا بيد تلمسه، فيتلفت وراءه ليرى هيروديا أمامه.

كانت مدثرة في ثوب خفيف، قرمزي طويل يصل حتى نعليها، ولم تتحل بقلادة أو قرط، لأنها غادرت غرفتها على عجل، وتركت ضفيرة من شعرها الأسود تنسدل من فوق ذراعها، ليختفي طرفها بين ثدييها، وكانت فتحات أنفها الشامخ تختلج، ووجهها يضئ بفرحة النصر، ثم قالت بصوت قوي وهي تهز الحاكم:

"إن قيصر يحبنا! لقد أودع "أجريبا" السجن!".

وسأل أنتيباس: "ومن أين لك هذا الخبر"؟

أجابت: "أنا أعرف ذلك"!

ثم أردفت تقول:

"والسبيل أنه أراد" أن يصبح "كايوس" أمبراطورا"!

عاش عالة عليهم، ومع ذلك كان يسعى إلى الملك، كما كانا هما أيضا يسعيان إليه، ولكن لم يعد ثمة ما يدعو إلى الخوف مستقبلا: "إن سجون تيبريوس لا تفتح بسهولة، وليست الحياة مضمونة فيها أحيانا"!

أدرك أنتيباس ما تعنيه بقولها، وبدا له أن هناك ما يبرر فظاعة قصدها، رغم أنها أخت أجريبا، فهذه المجازر نتيجة طبيعية، وأمر محتوم في بيوت الملوك، ولم يعد له حصر في بيت هيرود.

ثم عرضت هيروديا مشروعها، فذكرت له كيف اشترت ذمم العملاء، واطلعت على الرسائل، ورصدت العيون عند كل باب، واستطاعت أن تغوي "أوتيخيس" الذي قام بالتبليغ.

"لم أكن أقيم وزنا لشئ! ألم أفعل من أجلك أكثر من ذلك؟ ألم أهجر ابنتي!"

تركت ابنتها في روما عقب طلاقها، آملة أن تنجب غيرها، من زواجها بالحاكم. ولم يرد ذكرها على لسانها إطلاقا. وتساءل أنتيباس عن سبب هذه النوبة المفاجئة من الحنان. وكان الخدم قد طووا الخباء، وأحضروا على مقربة منهما وسادات كبيرة، فارتمت هيروديا وغاصت في واحدة منها، وأخذت تبكي مولية أنتيباس ظهرها، ثم مرت بيدها على جفنيها، وقالت إنها لا تريد أن تفكر في ذلك بعد اليوم، وإنها سعيدة بما هي عليه الآن، وأعادت على سمعه ما كانا يتبادلان من أحاديث، هناك في ساحة الدار، أو أثناء التقائهما في الحمامات وجولاتهما على امتداد الطريق المقدس، وذكرته كذلك بسمرها في الأمسيات، في دور الريف الواسعة، على خرير نوافير المياه، تحت أقواس الزهور، وسهول روما تمتد أمامها.

وراحت هيروديا تنظر إليه كما كانت تنظر إليه من قبل في ماضي أيامهما، وهي تتمسح بصدره، في رفق ونعومة، ولكنه دفعها عنه: لقد مضى الحب الذي تحاول الآن أن تعيده إلى الحياة، لقد مضى بعيدا، بعد أن كان السبب في كل ما أصابه من نائبات.

إن اثنى عشر عاما سوف تنقضي والحرب لا تزال مستعرة، وقد راحت بشباب الحاكم فبدا شيخا، تهدلت أكتافه تحت رداء قاتم، بنفسجي الأطراف، واختلط شعره الأبيض بلحيته، ونفذ ضوء الشمس من خلال الحجب، فغمر وجهه، فبدأ مكتئبا حزينا.

وقد سرت التجاعيد في جبين هيروديا أيضا، وجلسا وجها لوجه، ينظر كل منهما إلى الآخر شذرا.

بدأت الطرقات في الجبل تعج بالناس، فكان هناك رعاة يسوقون قطعانا من البقر، وأطفال يجرون حميرا، وسواس يقودون جيادا، وكان الهابطون من الجبال فيما وراء ما خايروس، يختفون وراء القصر، بينما يصعد آخرون في الوادي المقابل، فإذا ما وصلوا إلى المدينة حطوا أمتعتهم في الأفنية، وكان من بينهم متعهدو تموين قصر الحاكم، وبعض الخدم يتقدمون ضيوفه.

ولكن ظهر في آخر السطح. من ناحية اليسار، رجل أسيني، حافي القدمين، صارم المظهر، يرتدي ثوبا أبيض، وأقبل "مناحيا" يسرع من ناحية اليمين، وقد رفع سكينه، فصاحت هيروديا "اقتله"، وقال الحاكم: "قف"! فجمد مناحيا في مكانه، وظل الآخر دون حرا. ثم انسحبا وهما يسيران القهقري، لا ترتفع عين أحدهما عن الآخر، حتى اختفيا بعد أن هبط كل منهما في درج مختلف.

قالت هيروديا: "إنني أعرفه، واسمه "فانويل" وهو يسعى إلى مقابلة "ياهو كنعان"، الذي عميت بصيرتك فأبقيت عليه"!

واعترض أنتيباس زاعما بأنه قد ينفع يوما، فحملاته على بيت المقدس قد دفعت باقي اليهود إلى صفهما.

قالت: "لا! إن اليهود ليقبلون كل سيد وهم عاجوزن تماما عن تكوين وطن لهم! أما هذا الذي يثير الشعوب، ويلوح لها بآمال ما زالت تراودها منذ "نحميا"، فخير سياسة تتبع إزاءه أن يقضي عليه".

ورأى أنتيباس أن ليس هناك ما يدعو إلى تعجل الأمور، وأبدى عجبه ممن يعتقدون أن يهو كنعان يشكل خطرا، وراح يضحك ضحكا مفتعلا!.

وصاحت هيروديا طالبة منه أن يكف عن الضحك، ثم أعادت على سمعه قصة إذلالها يوم كانت شاخصة إلى مدينة "جلعاد"، لجمع محصول البلسم، إذا وقف بضفة النهر قوم يرتدون ملابسهم، بينما انتصب على ربوة قريبة منهم، رجل يخطب، وقد لف وسطة بمنطقة من جلد البعير، وبدا رأسه كأنه رأس أسد،..." وما أن لمحني حتى استنزل عليَ لعنات الأنبياء جميعا، وقد تطاير الشرر من مقلتيه، وزأر صوته، ورفع ذراعيه كأنما أراد أن ينتزع بهما الرعد، ولم يكن هناك سبيل للفرار! إذ علقت الرمال بعجلات عربتي حتى غطتها، وأخذت أبتعد الهويني وأنا أحتمى بمعطفي، وقد تجمدت أطرافي من تأثير تلك السباب التي كانت تتساقط عليَ كأمطار العاصفة!".

كان يهو كنعان ينغص عليها حياتها، وعندما قبض عليه، وأوثق بالحبال، عهد إلى الجند بقتله إذا قاوم، غير أنه تظاهر بالرقة واللين، وفي السجن، وضعوا معه بعض الثعابين، ولكنها ماتت.

وكان إخفاق جميع هذه المكائد يثير حفيظة هيروديا، فلماذا يشن عليها يهو كنعان هذه الحرب؟ وماذا يبتغي منها؟ إنتشرت خطبه التي وجهها إلى الجماهير وذاعت، وسمعت في كل مكان حتى ملأت الفضاء. ولو أن هيروديا حاربت جيوشا، لوجدت الشجاعة للقتال، ولكن هذه القوة التي هي أشد فتكا من السيوف، والتي لا سبيل إلى إدراك كنهها، كانت تذهلها فتدور بالسطح، وقد خطف الغضب لونها، وهي لا تجد كلاما تعبر به عما يختلج به صدرها من غيظ وكمد.

وفكرت أيضا في أن الحاكم قد يرى أن يطلقها، نزولا منه على الرأي العام! إنها تحلم منذ طفولتها بأمبراطورية عظيمة وفي سبيل تحقيق هذا الحلم،

هجرت زوجها الأول، وتزوجت هذا الأخير، إلا أنها أصبحت تعتقد الآن أنه خدعها! قالت:

– لقد اعتمدت على سند قوي بانتسابي إلى أسرتك!

فاكتفى الحاكم بقوله :

– "إنها في مكانة أسرتك!"

وأحست هيروديا بالدم يغلي في عروقها، دم الكهنة والملوك من أجدادها، ثم قالت:

– "غير أن جدك كان يكنس معبد "عسقلون"! وكان الآخرون من أسرتك رعاة ولصوصا، وجداة قوافل، كانوا شرذمة من الأقوام، يدفعون الجزية "ليهودا" منذ أيام الملك داود! وانتصر جميع آبائي على آبائك! وقد طردكم أول أسرة المكابيين من "هيبرون" وأجبركم "هيرقان" على الختان!... ثم راحت تطلق العنان لما تضمره ابنة الخاصة من زراية لابن العامة، وعبرت في ثورتها عن كراهية آل يعقوب لأهل "إيدوميا"، فأخذت على أنتيباس عدم اكتراثه بما يوجه له من إهانات، وتراخيه مع الفريسيين الذين خانوه، وجبنه مع الشعب الذي يمقتها، قالت: "اعترف الآن أنك مثل عامة الشعب! إنك تتحسر على الفتاة العربية التي ترقص حول الصخور. استردها! إذهب وعش معها، في خيمتها! والتهم خبزها المصنوع تحت الرماد! واجرع لبن نعاجها الرائب! وقبل خديها الأزرقين وانسني!"

غير أن الحاكم لم يكن ينصت لحديثها! فقد راح يتطلع إلى سطح منزل، وقفت فيه فتاة، وإلى جانبها عجوز تمسك بمظلة، عمودها قصبة طويلة كصنارة

صائد السمك وأمامهما وسط البساط، سلة كبيرة من سلال السفر، كانت مفتوحة، تبرز منها أحزمة وأنقبة، وأقراط من الذهب، بغير نظام أو ترتيب، وكانت الصبيه من وقت إلى آخر تميل على سلتها، وتتناول هذه الأشياء، وتنفضها في الهواء. كانت ترتدي كما ترتدي بنات روما، قميصا كثير الثنايا، ومن فوقه رداء تتدلى منه خصل من الزمرد، وقد ربطت ضفائر شعرها بشرائط من الجلد الأزرق، وبدا شعرها غزيرا ثقيلا، تتحسسه بيدها بين حين وحين، وكانت المظلة تتأرجح من فوقها، فيكاد الظل يحجبها. ولمح أنتيباس عنقها الدقيق، مرتين أو ثلاثا، ووقع نظره على جزء من عينها، وجانب من فمها الصغير. ولكنه كان يكشف قامتها كلها، من خاصرتها حتى أول عنقها. وهي تنحني ثم تنتصب في خفة وليونة. كان يرصد هذه الحركة كلما عادت إليها، فتسرع أنفاسه وتلتهب نظراته.

سأل: "من تكون ؟"

وأجابت هيروديا إنها لا تعرف شيئا عنها، ثم انصرفت وقد سكنت ثورتها فجأة.

وكان ينتظر الحاكم عند باب القصر، بعض أهل الجليل، ورئيس الكتبة، ومراقب المراعي، ومدير الملاحات ويهودي من بابل على رأس فرسانه، وبعد أن حياه الجميع بالهتاف، دلف إل حجراته الداخلية حيث اختفى.

وبرز "فانويل" عند ركن من الدهليز، وصاح أنتيباس:

– "آه! أيضا! لا ريب أنك قادم من أجل يهو كنعان؟

وأجاب: – ومن أجلك! فعندي لك نبأ عظيم!"

ولم يدع أنتيباس، بل دخل وراءه إلى مقصورة مظلة.

وكان ضوء النهار يتسرب خلال قضبان إحدى النوافذ، وينتشر على امتداد الحائط تحت أفريز السقف. وقد صبغت الجدران بلون أحمر داكن، يميل إلى السواد، وفي أقصى الحجرة، مد سرير من الأبنوس، سيوره من جلد البقر، وعلق في أعلاه مجن من الذهب، يتألق كالشمس.

عبر أنتيباس الحجرة، واستلقى على السرير، ووقف فانويل رافعا ذراعه كمن هبط عليه الوحي وطفق يقول:

"إن الرب الأعلى يرسل من وقت إلى آخر، واحدا من أبنائه. ويهو كنعان واحد منهم. إن اضطهدته، حل بك العقاب".

فصاح أنتيباس:

– "إنما هو الذي يعذبني! لقد طلب مني أمرا عسيرا، ومنذ ذلك الوقت، وهو يمزق أوصالي، إني لم أعنف به أول الأمر! وقد بلغ به الشطط أن بعث نفرا من أتباعه في مخايروس، ليثيروا على أهل ولا يأتي! الويل له ما دام حيا! لقد هاجمني، وأنا مضطر إلى أن أدافع عن نفسي!

قال فانويل:

– إن لثورته عنفا لا حد له! وليكن الأمر ما يكون! عليك أن تطلق سراحه.

ورد الحاكم قائلا:

– "إن الوحوش الضارية لا تطلق من عقالها"!

فأجاب الأسيني:

– "لا تقلق بالا بعد اليوم! فسوف يقصد إلى بلاد العرب، وبلاد الغال وأهل القيط، إذ لابد أن تنتشر رسالته في جميع أرجاء العالم!

وقال أنتيباس وكأنه يرى رؤيا:

– "إن سلطانه لعظيم!. ... وأنا بالرغم مني أحبه!"

– إذن فلترد له حريته!

هز الحاكم رأسه، فقد كان يخشى هيروديا ومنا حيا، ويرحف أيضا مما يضمر له الغيب.

اجتهد فانويل في إقناعه، قال إن في خضوع الأسينيين للملوك، ضمانا لنجاح مشروعاته، وكان القوم موضع الاحترام، فهم على فقرهم، لا يرضون الذل مهما سيموا سوء العذاب، وكانوا يتدثرون بالكتان، ويرصدون النجوم.

تذكر أنتيباس كلمة قالها فانويل منذ وقت قصير.

ما هذا النبأ الذي قلت لي أنه نبأ عظيم؟

وفي تلك اللحظة، دخل عبد أسود، قد أبيض جسمه من التراب، وتحشرج صوته، فلم يقو إلا على لفظ كلمة واحدة: "فيتليوس!"

– ماذا؟ أقادم هو إلى هنا؟

– لقد شاهدته. وسوف يصل قبل أن تمضي ثلاث ساعات.

ارتجت أبواب الردهات، كأنما عصفت بها الريح، واجتاحت القصر

موجة من الضخب والضجيج، فهناك رجال يهرولون وقطع من الأثاث تجر من مكانها وفضيات تتهاوى، ومن أعلا الأبراج أخذت النواقيس تجلجل، لتنبه العبيد الذين تفرقوا هنا وهناك.

(٣)

كان الناس يزحمون الأسواد عندما دلف فيتيليوس إلى الفناء. كان يستند إلى ذراع ترجمانه، تتبعه محفة كبيرة، حمراء اللون، مزدانة بالريش والمرايا، وقد ارتدى حلة القنصل وعباءته، وحذاءه ذا الرقبة الطويلة، وأحاط به نفر من حملة الفؤوس على عادة الرومانيين.

وغرز رجال الضبطية بالباب أسلحتهم، الأثنى عشر، التي كانت تتكون من قضبان ترتبطها منطقة من الجلد، وفي وسطها فأس وعندئذ سرت الرعدة في قلوب الجميع، إزاء عظمة الشعب الروماني.

وتوقفت المحفة التي كان يتولى حمها ثمانية من الرجال وخرج منها فتى، منتفخ البطن، مجدر الوجه، رصعت أصابعه باللآلئ، وقدموا له كأسا مملؤة خمرا عطرة، فأفرغها في فمه ثم طلب غيرها.

وخر الحاكم راكعا أمام الوالي، وراح يأسف لعدم معرفته قبل تلك اللحظة بمقدمه، فلو أنه عرف ذلك لأمر باتخاذ جميع الإجراءات التي تليق بمكانة آل فيتليوس، في كل البلاد التي مر بها قال إن آل فيتيليوس من سبط الآلهة "فيتيليا"، وهناك طريق يحمل اسمهم، يصل بين "جانيكول" والبحر، وأما الذين شغلوا مناصب أمناء المال، والقناصل في هذه الأسرة فعددهم لا حصر له. وأما "لوسيوس" ضيفه

الساعة، فالقناء عليه واجب، لانتصاره على القلط، وهو أبو الفتى "أولوس"، الذي هو الآن بمثابة العائد إلى موطنه، فالشرق موطن الآلهة. وكان الحاكم يصوغ هذا الإطناب في المديح، باللغة اللاتينية، وكان فيتيليوس يستمع إليه في غير اكتراث.

ثم أجاب بأن اسم هيرود العظيم يكفي لتمجيد أية أمة. فقد أسند الأثينيون إليه الإشراف على الألعاب الأولمبية، وقام بتشييد المعابد تكريما لأوغسطس، وكان صبورا، بارعا، مرهوب الجانب، مخلصا للقياصرة أبد الدهر.

ويلمح القوم من بين الأعمدة ذات الرؤس الفولاذية، هيروديا وهي تتقدم، كأنها امبراطورة، يحف بها سيدات وأغوات، يحملون على صوان في لون العقيق عطرا مشتعلة.

خطا الوالى خطوات ثلاثا لملاقاتها، ثم حنى رأسه بالتحية، فابتدرته قائلة:

– يا له من حظ سعيد في أن يصبح أجريبا، عدو تيبيريوس، عاجزا بعد اليوم عن ارتكاب أي أذى.

لم يكن فيتليوس يعرف عن هذا الأمر شيئا، وبدت هيروديا في عينيه امرأة ذات خطر وأقسم أنتيباس بأنه ليقدم على أي شئ في سبيل الأمراطور، فقال فيتيليوس: "ولو كان على حساب الآخرين"؟

وكان قد انتزع من ملك الفرس بعض الرهائن، ونسي الأمبراطور الأمر حتى لم يعد يفكر فيه، وإذا أنتيباس يذيع الخبر، أثناء الاجتماع، رغبة منه في أن يحظى بالتقدير لدى الأمبراطور، ومن ثم فقد حقد عليه فيتيليوس حقدا شديدا، ولم يبادر بإرسال النجدة له.

تلعثم الحاكم ولم يتكلم، بينما قال أولوس ضاحكا:

- "هدئ من روعك فأنت في حماي"!

تظاهر الوالي بعدم سماع ما قيل، فثراء الأب قائم على دناسة الابن، وهذه الزهرة التي نبتت في أوحال كابريا، هي مصدر أرباح طائلة له، ولذلك فهو يحوطها بالتبجيل، ولكنه في الوقت نفسه يحذرها، لأنها تنطوي على سم زعاف.

حدثت ضجة بالباب، وأدخلت قافلة من البغال البيض، امتطى ظهورها أفراد في زي الكهنة، هم نفر من الصدوقيين والفريسيين، جاءوا إلى مخايروس تحدوهم نفس الرغبة: يطمع الأولون في أن تنتقل إليهم سدانة الهيكل، ويريد الآخرون الاحتفاظ بها. وكانت وجوههم عابسة، الفريسيون منهم خاصة، فهم أعداء روما وأعداء الحاكم، وكانت أطراف أرديتهم تعوق سيرهم وسط الزحام، وقلنسواتهم تهتز على جباهم فوق أشرطة من الرق، سطرت عليها بعض الكتابات.

وفي نفس اللحظة على وجه التقريب، وصلت كتيبة من جنود الطليعة، وكانت تروسهم موضوعة في أجربة، اتقاء للغبار، وخلفهم "مارسلوس" نائب القنصل، ومعه نفر من العشارين، يتأبطون ألواحا صغيرة من الخشب.

نادى أنتيباس أعيان قومه، كلا باسمه: "تولماي" "كنتيرة"، "سيحون"، "أمونيوس" السكندري الذي كان يبتاع له الأسفلت، "ونجمان" قائد المشاة، "وياسيم" البابلي.

ولمح فييتليوس بين الموجودين مناحيا فسأل:- ومن هذا إذا ؟

فأفهمه الحاكم بإشارة منه أنه الجلاد.

ثم قدم له الصدوقيين.

تقدم "جوناتاس" وكان رجلا صغير الجسم، خفيف الحركة، يتحدث اليونانية، والتمس من السيد أن يشرف قومه بزيارة بيت المقدس، وأجاب فيتيليوس بأن من المحتمل أن يزورها.

وطالب "أليعاز" ذو الأنف الأعقف واللحية الطويلة أن يسلم للفريسيين رداء الكاهن الأعظم الذي تحتجزه السلطات المدنية في برج "أنطونيا".

وجاء دور الجليليين، فارتفعت أصواتهم بالشكوى من بيلاطس البونطي، الذي تسبب في قتل عدد من السكان، بسبب رجل معتوه، كان يبحث في إحدى المغارات عن بعض الأواني الذهبية التي كانت ملكا للملك داود. وأخذ الجميع يتصايحون، وكان صوت مناحيا أشد الأصوات عنفا، فأكد لهم فيتيليوس أن المجرمين سينالون جزاءهم.

وضج الفضاء باللعنات والسباب، تجاه باب كبير، إذ كان الجند قد علقوا عليه تروسهم، ثم أزاحوا عنها أغطيتها، فظهرت على صفحتها صورة قيصر، وكان اليهود يعتبرون ذلك مظهرا من مظاهر الوثنية، فخطب فيهم أنتيباس ووقف فيتيليوس، بين العمدان، فوق كرسي مرتفع، يتطلع بدهشة إلى ثورتهم: إن تيبيريوس كان على حق عندما نفى أربعمائة منهم إلى سردينيا ولكنهم لا يزالون أقوياء في ديارهم، ولم يسعه إلا أن يأمر برفع التروس من أماكنها.

وعند ذلك أحاطوا بالوالي، يلتمسون منه التعويض عما أصابهم من مظالم، ويضرعون له أن يمنحهم بعض الامتيازات، أو يقدم لهم الصدقات،

وبلغ من شدة الزحام أن تمزقت الثياب، وداس القوم بعضهم بعضا، وحمل العبيد العصى، وراحوا يضربون يمينا ويسارا، ليخففوا وطأة الازدحام وانحدر الذين كانوا على مقربة من الباب نحو الطريق، بينما أخذ غيرهم يصعدون في الطريق نفسه فكانت حركة مد وجزر، والتقى تياران من هذه الكتل البشرية، وهي تهتز وتضطرب، وقد ضيقت الجدران عليها الخناق من الجانبين.

سأل فيتيليوس عن سبب هذا الجمع الحاشد، فقال أنتيباس إن السر هو المأدبة التي يقيمها بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده، ثم أشار إلى عدد كبير من رجاله، وقد انحنوا عند مشارف الأبراج، يسحبون سلالا كبيرة من اللحوم والفاكهة والخضروات، وغزلانا، ولقالق، وأسماكا ضخمة فيروزية اللون، وعنبا وبطيخا، ورمانا قد رص بعضه فوق بعض في شكل هرمي. فلم يتمالك أولوس نفسه إزاء ذلك، وهرول إلى المطابخ، يدفعه هذا المهم، الذي كان مثار الدهشة لدى الجميع.

وفيما هو يمر بقبو، شاهد قدورا تشبه الدروع، فأقبل فيتيليوس ينظر إليها ثم أمر أن تفتح له ما تحت أرض القصر من حجرات.

كانت تلك الحجرات منحوتة في الصخر، ذات أسقفة عالية، وبين الواحدة والأخرى عدد من الأعمدة، كانت الحجرة الأولى تحتوي على أسلحة قديمة، وكانت الثانية تزخر بالرماح التي تنبثق أسنتها وسط يافة من الريش، وكأنما الحجرة الثالثة قد فرشت بحصر من العيدان، فقد رصث فيها السهام الرفيعة في دقة عجيبه، يتعامد الواحد منها مع الآخر، وغطت صفاح السيوف جدران الحجرة الرابعة، وصفت الخوذات في الخامسة صفوفا، كأنها برءوسها

جيش من الأفاعي الحمر، ولا ترى في السادسة إلا كنانات، ولا تعثر في السابعة والثامنة إلا على أجزاء من عدد السلاح، ففي السابعة لفافات السيقان، وفي الثامنة واقيات الأذرع، وفي الحجرات الأخرى، مناشير وخطاطيف، وسلالم، وحبال، بل هناك أيضا صوار لتثبيت المنجنيق، وكذلك جلاجل تعلق في صدور الجمال! وكلما اقتربوا من قاعدة الجبل، ازداد اتساعا، وقد أفرغ جوفه، فبدا كخلية نحل، وظهرت تحت الحجرات السابقة حجرات أخرى، أكثر عددا وأبعد غورا.

وطاف "فيتيلوس"، و"فينيس" ترجمانه، و"سيزينا"، كبير العشارين، بالحجرات على ضوء المشاعل التي يحملها ثلاثة من الأغوات.

ولمحوا وسط الظلام بعض الآلات المفزعة مما ابتكره البرابرة، من مطارق غطتها المسامير، وحراب لتسميم الجروح، وكماشات كأنها فكاك التماسيح، وقد اتضح لهم آخر الأمر، أم الحاكم يحتفظ في مخايروس بذخيرة تكفي أربعين ألف محارب.

جمع أنتيباس هذا السلاح، متوقعا أن يتحالف الأعداء عليه، ولكنه فكر في أن الوالي ربما ظن أو زعم أنه إنما يعد العدة لمحاربة الرومان، ولذلك راح يفسر له موقفه إزاء ذلك.

أخبره بأن تلك الذخيرة ليست له، فجزء كبير منها يستعان به لمقاومة اللصوص، وهي على أية حال ضرورية لمحاربة العرب واستطرد قائلا بأن كل هذه الذخيرة كانت لأبيه من قبله، ثم أسرع خطوه، يسبق الوالي، بدلا من السير وراءه، ووقف إزاء الحائط، ونشر مرفقيه، فاردا طيلسه، ليواري به

الجدار، ولكن قمة الباب الذي يحجبه كانت أعلى من رأسه، فلمحها فيتيليوس، وأراد أن يعرف ماذا يخفي هناك.

قال الحاكم إن البابلي وحده هو الذي يستطيع أن يفتح الباب وأمر فيتيليوس فاستدعاء البابلي.

وراح القوم ينتظرونه.

كان والد هذا البابلي قد حضر من ضفاف الفرات، عارضا خدماته على هيرود، ومعه خمسمائة من الفرسان، للدفاع عن الحدود الشرقية وبعد تقسيم المملكة أقام "ياسيم" عند فليب، ثم انتقل إلى خدمة أنتيباس.

أقبل "ياسيم" يحمل قوسا على كتفه، وسوطا في يده، وقد شدت على ساقيه الملتويتين حبال من ألوان عديدة، وبرزت ذراعاه المفتولتان من سترة بدون أكمام، وظللت وجهه قلنسوة من الفراء، ومشطت لحيته على شكل حلقات.

بدا في أول الأمر كأنه لا يفهم الترجمان، ولكن فيتيليوس رمى أنتيباس بنظرة جعلته يعيد عليه الأمر في الحال، وعندئذ وضع ياسيم كفيه على الباب فانزلق داخل الحائط.

وهبت من غور الظلام نسمة ساخنة، وشاهدوا ممرا ينحدر في التواء، فانسابو فيه حتى وصلوا إلى عتبة غار، أكبر في اتساعه من الحجرات السردابية الأخرى.

وظهر نفق مقبب ينتهي إلى الخندق الذي يحمي القلعة من هذا الجانب وفي سقف النفق، تعلقت شجرة "زهر العسل"، تتدلى أزهارها على

ضوء نور وهاج، وسمع خرير ماء ينساب فوق سطح الأرض في خيط رفيع.

كانت هناك جياد بيضاء، يبلغ عددها قرابة المائة، تتناول الشعير من لوح قد وضع على ارتفاع فمها، وقد صبغ عرفها جميعا باللون الأزرق، وأدخلت حوافرها في قفازات من صناعة اسبرطه، وكان الشعر بين الأذنين منتفشا على جباهها، كأنه شعر مستعار، وهي تضرب سيقانها في رقة بذيولها البالغة الطول، ووقف الوالي ينظر إليها وقد عقد الإعجاب لسانه.

كانت الجياد من نوع عجيب، لها ليونة الأفاعي وخفة الطير، يطلق الفارس سهمه، فتنطلق معه، تطبق بنواجزها على بطون الرجال، فتطرحهم أرضا، لا تعوقها عقبات في الصخور، وإن صادفتها أغوار قفزت من فوقها، وتستطيع في السهول أن تواصل عدوها الجامح نهارا بطوله، وتكفي كلمة واحدة لتوقفها... وما أن دخل "ياسيم" حتى أقبلت عليه كما تقبل الخراف على راعيها، ومدت رقابها، وراحت عيونها الرئة تتطلع إليه في قلق وانتظار، وأطلق ياسيم، كما اعتاد أن يفعل، صيحة مبحوحة من جوف حلقه، أشاعت الفرحة بينها، فأخذت تنتفض، وتقف على قدميها الخلفيتين، متعطشة إلى العدو في الخلاء.

وكان أنتيباس يخشى أن ينزعها فيتيليوس منه، فحبسها في هذا المكان الذي خصصه للحيوان في حالة الحصار.

قال الوالي: "إن الحظيرة غير صالحة! وقد تعرض الخيل للهلاك! إحص عددها يا "سيزيا"!"

وأخرج العشار لوحا من منطقته، وعد الجياد وسجل العدد.

كان وكلاء الهيئات المكلفة بجباية الضرائب، يرشون الحكام، ليتمكنوا

هم من نهب الأقاليم، وكان فيتيلوس يتشمم بأنفه الشبيه بأنف النمس، كل مكان وجفناه يختلجان.

ثم رجع إلى الفناء.

وكان في وسط بلاط الفناء، بين مسافة وأخرى، قواعد مستديرة من البرونز تغطي الآبار، ولاحظ فيتيليوس أن واحدة منها أكبر من غيرها، يصدر عنها نفس الرنين إذا وطأتها الأقدام، فأخذ يدقها كلها الواحدة تلو الأخرى، ثم صاح بملء صوته، وهو يضرب الأرض بقدميه:

– "عثرت عليه! هنا كنز هيرود!

وكان البحث عن كنوز هيرود، لوثة أصابت عقول الرومان.

وأقسم الحاكم أن ليس هناك أي كنز.

ولكن ما الذي يكمن إذن تحت هذا الغطاء.

أجاب أنيتباس: "لا شئ!"

وقال فيتيليوس: أظهرني عليه!

لم يصدع الحاكم للأمر، حتى لا يعرف اليهود سره، وضاق فيتيليوس ذرعا بتمرده في إزاحة القاعدة.

وصاح في رجال الحرس طالبا منهم أن يحطموها.

وفطن مناحيا إلى ما يشغل بالهم، وظن عند رؤيته الفأس أنهم سيضربون عنق يهو كنعان، فأوقف الضابط عند أول ضربة على القاعدة، ثم أنفذ فيما

بينها وبين البلاط، ما يشبه خطافا، وأخذ يرفعها في هون، وقد تصلبت ذراعاه الطويلتان النحيفتان، ثم ألقى بها جانبا، وأثارت قوة هذا الشيخ إعجاب الجميع. وكان الغطاء مبطنا بالخشب، وتحته باب سري أفقي من حجمه، انشطر الباب إلى مصراعين، فظهرت عندئذ حفرة أو قل هوة كبيرة، يهبط إليها درج بلا حاجز، وشاهد الذين مالوا على حافة البئر، شيئا في القاع غير واضح المعالم، يثير منظره الرعب والهلع.

كان يرقد على الأرض، كائن بشري. يختفي تحت شعر طويل، يختلط بوبر الحيوانات، الذي يكسو ظهره، وانتصب الرجل واقفا حتى لمس جبينه شبكة من الحديد أحكمت فوقه في وضع أفقي وراح يتجول مختفيا بين اللحظة والأخرى في غياهب عرينه.

وسطعت الشمس على رءوس التيجان، ومقابض السيوف، فجعلتها تتألق، وسخن بلاط الفناء، ولم يعد يحتمل، وطار الحمام من أفاريز الأبراج، وطفق يدور محلقا فوق ساحة الفناه، كانت هذه هي الساعة التي اعتاد مناحيا فيها أن ينثر له الحب، وكان مناحيا وقتئذ يجلس القرفصاء أمام الحاكم الذي وقف قريبا من فيتيليوس.

ومن خلفهم أهل الجليل والكهنة والجند على شكل دائرة.

وقد خيم السكوت على الجميع، خوفا مما سيحدث.

وكان أول ما سمع تنهد عميق، صادر عن صوت دفين.

سمعته هيروديا وهي في الطرف الآخر من القصر، ورأت نفسها تنجذب مبهورة، تشق لها طريقا بين الجماهير، ثم تضع يدها على كتف مناحيا، وتنحني بجسمها وتصغي.

– "الويل لكل معشر الفريسيين والصدوقيين، يانسل الأفاعي. إنكم بمثابة القرب الجوفاء، والدفوف الصاخبة!"

عرف الحاضرون صوت يهو كنعان. وسرى اسمه في الصفوف، وأقبل جمع آخر من الناس:

– "الويل لك أيها الشعب! الويل لخونة "يهوذا"، ومخموري "آفرايم" وللذين يسكنون الوادي الخصيب، ممن تجعلهم نشوة الخمر يترنحون!

" فليتبددوا كما يتبدد الماء الجاري، وليتلاشوا كما تتلاشى القواقع في سيرها... وليقض عليهم. كالجنين الذي يموت في يطن المرأة فلا يرى الشمس إطلاقا.

"لابد لك يا "مواب" أن تلوذ بأشجار السرو كالعصافير، أو بالكهوف كالجرزان. إن أبواب الحصون سوف تتحطم أسرع مما تتكسر قشور الجوز، والأسوار سوف تنهار وتحترق المدن، ولن تنتهي ضربات الرب، فلسوف يقلب أطرافكم في دمائكم، كما يقلب الصاغ الصوف في خابيته، ولسوف يمزقكم إربا كما تفعل الزحافة الجديدة بأجسادكم، وينثر على الجبال كل قطعة من لحمكم."

عن أي بطل فاتح كان يتحدث؟ أكان يقصد فيتيليوس؟ إن الرومان وحدهم هم الذين يستطيعون أن ينكلوا بالشعب هذا التنكيل.

وضجت بعض الأصوات تجار بالشكوى. "كفى! فليكف إذن!

غير أنه استمر أقوى صوتا من ذي قبل:

– سوف يزحف الأطفال فوق الرفات على مقربة من جثث أمهاتهم، وسوف يخرج الناس أثناء الليل يبحثون بين الخرائب عن الخبز، تهددهم السيوف، وسوف تتخاطف بنات آوى العظام في الميادين العامة، حيث كان يسمرون، وسوف تغص الأبكار بالدموع، وهن يعزفن على القيثار في مآدب الغرباء. ويحني أشجع أبنائك ظهورهم وتد اثخنتها الجراح تحت أحمال بالغة الثقل!"

تمثل الشعب أيام منفاه، وكل المصائب التي مر بها تاريخه، وكانت كلمات يهو كنعان، هي نفس كلمات الأنبياء الأولين، تنطلق كالقذائف الشديدة، الواحدة تلو الأخرى.

غير أن الصوت أخذ يهدأ، وراح يترنم، مبشرا بحرية قادمة، وبمباهج في السماء قائمة، وبالوليد الجديد، ينفذ إحدى ذراعيه في كهف التنين، بالصلصال يتحول إلى ذهب، وبالصحراء تتفتح كالوردة، وقال:

– "إن ما قيمته الآن ستون شاقلا، لن يساوي فلسا واحدا، سوف تتفجر من الصخر عيون من اللبن، يرقد الناس في معاصر الخمر، وقد امتلأت بطونهم: متى تأتي أنت يا من آمل فيك ؟ قبل مجيئك، تسجد لك الشعوب، وسوف يكون ملكك حتى الأزل يا ابن داود!"

إنتفض الحاكم مرتدا إلى الوراء، ففي وجود ابن لداود إهانة له أشبه بالوعيد.

واستنزل يهو كنعان اللعنات على مملكته فقال:

"لا يوجد ملك غير الرب الأزلي!" وعلى ما يقتني من حدائق وتماثيل وأثاث عاجي، كما كان يفعل "آخاب" الزنديق!

أنتزع أنتيباس القلادة التي تتدلى على صدره وتحمل خاتمه، وقذف الخاتم في الحفرة آمرا يهو كنعان أن يسكت.

فأجاب الصوت :

– "سوف أصيح كالدب... كحمار الوحش... كالمرأة وهي تضع وليدها".

"إنك لقيت جزاءك فيما ترتكب من زنا. .. فقد ابتلاك الله بعقم البغال!"

وتعالت الضحكات كتلاطم الأمواج.

أصر فيتيليوس على البقاء، وكان المترجم ينقل غير مكترث إلى اللغة الرومانية، كل السباب التي يزأر بها يهو كنعان بلغته هو واضطر أنتيباس وهيروديا أن يسمعا السباب مرتين، وأخذ هو يلهث، بينما وقفت هي تتطلع إلى قاع البئر، فاغرة فاها.

وألقى ذلك الرجل المخيف برأسه إلى الوراء، ثم أمسك بالقضبان وألصق وجهه بها، وهو أشبه بأعشاب شائكة، تحترق فيها جمرتان، وصاح:

– آه! هذه أنت يا جيزابيل!"

لقد استوليت على قلبه برنين نعالك، كنت تصهلين كالفرس وبسطت فراشك فوق الجبال، لتقربي القرابين!

إن الرب سوف ينتزع عنك أقراطك، وثيابك القرمزية وأوشحتك الكتانية ويخلع الأساور من ذراعيك، والخلاخيل من قدميك، والأهلة الذهبية الصغيرة

التي تهتز على جبينك ومراياك الفضية ومراوحك المصنوعة من ريش النعام، وقباقيب العاج التي ترفع قامتك، وبهاء ما ساتك، وأطياب شعرك، وصبغة أظافرك، وكل ما تتحلين به لإظهار فتنتك، ولن تكفي حجارة الأرض لرجم الزانية!

تلفتت هيروديا تنظر حولها علها تجد من يدافع عنها، وفي رياء أطرق الفريسيون عيونهم، وأشاح الصدوقيون بوجوههم، خوفا من إغضاب الوالي وكان أنتيباس أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

أخذ الصوت يتضخم وينتشر، ويهدد كقصف الرعد، والجبال تردد صداه وكانت قذائفه العديدة تنهال على قلعة مخايروس لتصعقها.

– "تمرغي في التراب يا ابنة بابل! اطحني الدقيق! وانزعي منطقتك، واخلعي حذاءك. وشمري عن ساقيك، واعبري الأنهار! فلابد أن ينكشف عارك وأن يبين خزيك! وسوف تتحطم أسنانك من شديد أناتك، إن الرب السرمدي ليستنكف جرائمك الكريهة! ملعونة أنت! فلتموتي ميتة الكلاب!"

أقفل باب الجب، وأعيد الغطاء، وكان بود مناحيا أن يخنق يهو كنعان.

وأختفت هيروديا واستقبح الفريسيون ما رأوا، ووقف أنتيباس يدافع عن نفسه.

قال ألعيازر: "لاريب في أن الرجل لابد أن يتزوج من امرأة أخيه، ولكن هيروديا لم تكن أرمل، فضلا عن أنها أنجبت ولدا، وهذا مصدر البشاعة في فعلتها!!"

واعترض جوناتاس الصدوقي يقول: "خطأ! خطأ! إن القانون يدين هذه الزيجات ولكنه لا يرفضها رفضا مطلقا!"

وقال أنتيباس: "ليكن ما يكون! إنني مظلوم! ألم يضاجع أبشالون نساء أبيه ويهو ذا كنته، وأمون أخته، وقوم لوط بناتهم ؟.."

وفي تلك اللحظة ظهر أولوس، وكانت قد أخذته سنة من النوم، ولما أحيط بالأمر، وافق الحاكم على رأيه إذ ليس في الأمر ما يدعو للحرج من هذه السخافات، وأغرق في الضحك من ملامات الكهنة، ومن ثورة يهو كنعان.

التفتت إليه هيروديا، وكانت تقف في وسطة العتبة، وقالت:

– "إنك لعلى خطأ يا سيدي! فهو يأمر الشعب أن يمتنع عن دفع الضرائب".

وسأل العشار في الحال :– "أحقيقة ما تدعين"؟. .

وكانت الإجابات في غالبها، تثبت ما قالت، وراح الحاكم يضاعف من تأكيدها.

فكر فيتيليوس في أن الأسير قد يهرب، ورأى في مسلك أنتيباس ما يثير الريب، فأقام حراسا عند الأبواب على امتداد الأسوار وفي الفناء.

وشخص بعد ذلك إلى مقصورته يصحبه وقد يمثل هيئة الكهنة.

وشرعت كل طائفة تعرض شكواها، دون أن تطرق موضوع السدانة في الهيكل.

كان الجميع يحيطون به ملحين، فصرفهم عنه.

ولمح "جوناناس" وهو منصرف، أنتيباس يتحدث من فتحة في شرفة البرج، إلى رجل طويل الشعر يرتدي ثوبا أبيض اللون، وعرف جوناناس فيه واحدا من الأسبنيين، وندم على دفاعه عن أنتيباس.

وكان الشئ الذي يعزي الحاكم أن مصير يهو كنعان لم يعد بيده، فسوف يتولى الرومان أمره... يا له من عزاء! وفي تلك اللحظة كان فانويل يتجول في المكان المخصص للحراسة ليلا.

وناداه أنتيباس ثم أشار إلى الجند وقال:

"أنهم أقوى مني! لست أستطيع أن أطلق سراحه! وما الذنب ذنبي!"

كان الفناء خاليا، والعبيد يستريحون، والأفق يشتعل بحمرة السماء، وقد ارتسمت على رقعتها كل الأشياء القاتمة، مهما صغر حجمها فبدت كأنها عمد سوداء، واستطاع أنتباس أن يتبين الملاحات من الجانب الآخر من البحر ولكنه لم يعد يرى خيام العرب... أتراهم قد ارتحلوا ؟... كان القمر يصعد في السماء، واستشعر الحاكم هدوءا ينزل بقلبه.

أنا فانويل فوقف محزونا، حانيا رأسه حتى كادت ذقنه تلمس صدره، ثم أخذ يفضي، آخر الأمر،. مما كان ينبغي أن يقول.

فمنذ أول الشهر وهو يرصد السماء قبل بزوغ الفجر، لأن مجموعة الفلك "سيديو" كانت تحتل سمت السماء، وكوكب "العجلة" لا يكاد يبين، "والغول" أقل بريقا منه عادة. واختفت "ميار شوتي"، ولذلك فهو بتكدن يموت رجل عظيم، مذه الليلة بالذات في ماخايروس.

فمن يكون ذلك الرجل؟ إن الحراسة مشددة حول فيتيليوس، ولا ينتظر أن يعدم يهو كنعان. وفكر الحاكم وقال: "أنا إذن"!

ربما تأهب العرب للعودة ؟ أو ربما اكتشف نائب الوالي القنصل علاقته

بالفرس ؟. . والكهنة يسيرون وفي معيتهم نفر من السفاحين الذين يؤجرون في بيت المقدس، وهم يخفون تحت ثيابهم خناجرهم، والحاكم لا يشك في دهاء فانويل.

وفكر في أن يلوذ بهيروديا، رغم كرهه لها، فقد تبعث فيه الشجاعة، وصلته بها لم تنقطع كلية، فهو بعد يذكر تأثير سحرها الماضي عليه.

ودلف إلى غرفتها، وكانت تعبق برائحة القرفة المحترقة، تتصاعد من حوض من الرخام السماقي، وانتثرت في أرجاء المكان، مساحيق وأدهان، وأنسجة شفافة كالسحاب. وأقمشة مطرزة أخف من الريش.

لم يذكر نبوءة فانويل، ولا خوفه من اليهود والعرب، حتى لا يتهم بالجبن وإنما تحدث عن الرومان، فقال إن فيتيليوس لم يفض إليه بشئ من أهدافه العسكرية، لظنه أنه صديق لكايوس الذي يتردد على أجريبا، وهو يتوقع لذلك إما النفي وإما القتل.

وراحت هيروديا تطمئنه في إشفاق لا يخلو من الزراية، وأخرجت آخر الأمر من صندوق نوطا معدنيا غريب الشكل، يزدان بصورة جانبية لوجه تيبيريوس، وكان ذلك كافيا لإرهاب رجال الضبطية والقضاء على الشبهات.

تأثر أنتيباس لجميل صنيعها، وسألها عن مصدر هذا النوط فقالت: "لقد قدم لي هديه".

وامتدت في هذه اللحظة، من تحت باب مواجه، ذراع عارية فتية جميلة كأنها خرطت من العام على يد بوليكليت وأخذت تتحسس الهواء، بحركة عشواء، ولكن في رقة ونعومة، تحاول أن تمسك قميصا ألقي على مقعد صغير قرب الحائط.

وأزاحت الستار امرأة عجوز، وناولت الذراع القميص.

وقفزت إلى ذهن الحاكم صورة لم يستطع أن يجلوها، وقال:

– "هل هذه الأمة لك؟

فأجابت هيروديا:

– وما شأنك بهذا؟.

(٣)

ملأ المدعوون قاعة الوليمة.

وكان للقاعة ثلاثة أبهاء كأبهاء الكنيسة، تفصلها دعائم من الخشب، رءوسها من البروز المكسو بالنقوش المنحوتة. ويرتفع على الأعمدة رواقان بهما فتحات، وزين الرواق الثالث بشبكة من الذهب، تنتهي بقوس يقابله من الطرف الآخر عقد عريض مفتوح.

وصفت الموائد على امتداد القاعة، ووضعت فوقها شمعدانات موقدة كأنها قبس من نار، بين أواني الفخار الملون، وصحاف النحاس، ومكعبات الثلج، وأكوام العنب، ولكن هذه الأضواء الحمراء، كانت تتلاشى تدريجا، لارتفاع السقف، فتبدو نقط لامعة، تتألق كالنجوم، من خلال الغصون أثناء الليل ومن فتحة الشرفة الكبرى، كانت ترى المشاعل فوق أسطح المنازل، لأن أنتيباس كان يحتفل بأصدقائه، وبشعبه وبكل من وفد عليه.

والعبيد يغدون ويروحون، خفافا كالكلاب، يسيرون في نعال من اللباد وهم يحملون الطباق.

وكانت مائدة الوالي تشغل منصة من ألواح الجميز، تحت عرش مكسو بالذهب، حفت به طنافس من بابل، فجعلت منه شبه مقصورة منعزلة.

واحتوت ثلاثة أسرة من العاج، فيتليوس وابنه وأنتيباس، وأحد منهم في الأمام، وواحد على كل جانب. وجاء مكان فيتيليوس قريبا من الباب، إلى اليسار، بينما جلس أولوس إلى اليمين، والحاكم في الوسط.

كان يرتدي طيلسا فضفاضا أسود اللون، اختفت خطوط نسجه تحت نقوش ملونة، وقد صبغ خديه، وأطلق لحيته على هيئة مروحة، ونثر مسحوقا أزرق على شعره، بعد أن جمعه تحت إكليل من الحجارة الكريمة. كان فيتيليوس يحتفظ بعباءته الأرجوانية اللون تتهدل في ميل بين كتفه ومنطقته فوفى رداء من الكتان. وعقد أولوس وراء ظهره أكمام ثوبه الحريري البنفسجي اللون، الموشي بخطوط الفضة، وجعل خصلات شعره طبقات، ولف عنقه بعقد من الياقوت، يتألق على صدره البض السمين، الذي يشبه صدر المرأة. وبالقرب منه، قعد غلام جميل الطلعة، دائم الابتسام. فوق فراش من حصير، ضم عليه سافيه، وقع عليه نظر أولوس في المطابخ، فلم يعد يتخلى عنه، وكان اسمه الكلداني صعب الحفظ، فصار "يلقبه إلا بالأسيوي". وكان أولوس وقت لآخر يتمدد في مقعده بغرفة الطعام فتطل قدماه العاريتان على الحاضرين.

وجلس من هذه الناحية، الأحبار وقواد أنتيباس وبعض سكان بيت المقدس، وأعيان المدن اليونانية، وجلس تحت شرفة الوالي ماركلوس، والعشارون، وبعض أصدقاء الحاكم، وكبار أهل كانا، و"بطليمود"، و"أريجا"، واختلط في أرجاء القاعة سكان جبال لبنان بجنود هيرود القدامى وبينهم اثنا عشر رجلا من أهل تراسيا،

وواحد من الغال، واثنان من الجرامان وبعض صيادي الغزلان، ورعاة من "أدوم"، وسلطان "بالميرا"، وبحارة من "أزنجابر"، وأمام كل منهم فطيرة من عجين طري يمسح بها أصابعه وكانت أذرعهم تمتد كرقاب الصقور لتناول الزيتون والفستق واللوز، والوجوه كلها تقيض بهجة تحت أكاليل الزهر.

أما الفريسيون فقد رفضوا وضع الأكاليل على رؤوسهم لأنها رمز للخلاعة الرومانية. واقشعرت أبدانهم عندما رشوا عليهم الصمغ والبخور. لأن هذا المزيج لا يستعمل إلا في خدمة الهياكل.

ودهن أولوس به أبطه، ووعده أنتيباس بكمية كبيرة تملأ ثلاثة سلال من هذا الطيب الحقيقي، الذي أرغى كليوباترة في الإستيلاء على فلسطين.

وفي هذه اللحظة، قدم على غير موعد، أحد قواد حاميته في طبرية، ووقف خلفه. وجعل يحدثه عن أنباء خارقة. ولكن اهتمامه كان موزعا بين الوالي وبين ما يدور من أحاديث على الموائد المجاورة.

كانوا يتحدثون عن بهو كنعان وعن قوم من أمثاله. فهناك "سمعان الجيتوي " الذي يغسل الخطايا بالنار. وهناك شخص يدعى "يسوع"...

وصاح أليعازر :– "إنه أشدهم خطرا. .. يا له من مشعوذ قذر".

ونهض من وراء الحاكم، رجل شاحب وجهه في لون طرف ثوبه العسكري، وهبط من المنصة وراح يخاطب الفريسيين. قائلا: "هذا كذب: إن يسوع يأتي بالمعجزات!".

وأبدى أنتيباس رغبته في مشاهدة بعض هذه المعجزات، وقال:

"كان يحسن بك أن تأتي به هنا. حدثنا عنه!".

فقال الرجل عندئذ، وكان يدعى يعقوب إن إبنته كانت مريضة، فقصد إلى كفر ناحوم ليرجو المعلم في شفائها. فأجابه المعلم: "عد إلى دارك فقد برئت!" ولما عاد وجدها بباب الدار، وقد غادرت فراشها في اللحظة التي قابل فيها يسوع.

فاعترض الفرنسيون قائلين إن هناك بلا ريب أعمالا سحرية، وأنواعا من الحشائش ذات أثر كبير! ففي قلعة ما خايروس نفسها يوجد صمغ الصنوبر الذي يقي من الجراح. أما شفاء المرضى من غير أن تقع العين عليهم أو تمسهم اليد. فذلك أمر مستحيل، إلا إذا كان يسوع يستعين بالشياطين.

وهز أصدقاء أنتيباس، وأعيان الجليل رءوسهم قائلين.

"إنهم الشياطين بلا شك".

ووقف يعقوب بين مائدتهم ومائدة الكهنة. ولزم الصمت في هدوء ممزوج بالكبرياء.

وألح عليه القوم أن يتكلم فسألوه "وكيف تعلل سلطانه؟" فحنى كتفيه وراح يتحدث في صوت خفيض، تخرج العبارات منه بطيئة، كأنه يخشى من أمره شيئا وقال:

"ألا تعلمون إذن من هو المسيح؟"

تطلع الأحبار جميعا بعضهم إلى بعض. وسأل فيتيليوس عن معنى هذا اللفظ. وتردد ترجمانه لحظة قبل أن يجيب.

كانوا يطلقون هذا الإسم على مخلص لهم سوف يأتيهم بكل أنواع

المتع ويمكنهم من بسط سلطانهم على جميع الشعوب. وذهب بعضهم إلى التأكيد بمجئ اثنين، ينهزم الأول أمام يأجوج ومأجوج، شياطين الشمال. وأما الثاني فينتصر على الشر. وهم ينتظرون مجيئه منذ قرون بين آونة وأخرى. تداول الكهنة، فيما بينهم وأخذ أليعازر يقول:

– الحقيقة الأولى أن المسيح من سبط داود، وليس ابن نجار، سوف يثبت الشريعة ولا يهاجمها كما يفعل ذلك الناصري، وهناك حجة أقوى دلالة وهي أن ظهور المسيح لابد أن يسبقه مجئ إيليا.

فأجاب يعقوب: ولكن إيليا قد جاء!

ورددت الجماهير حتى آخر أطراف القاعة: "إيليا! إيليا!".

وتمثل الجميع شيخا، تحلق فوقه الغربان فتظله، وتصوروا صاعقة تشعل النار في الهيكل، وبالكهنة من عبدة الأوثان، فتجرفهم السيول، وفكر النساء وهن جالسات بمقصوراتهن في أرملة "ساريبتا".

وأكد يعقوب بكل قواه أنه يعرفه فقد رآه كما رآه الشعب أيضا!

– وما اسمه؟.

وعندئذ صاح بملء صوته.

– يهو كنعان!

فارتمى أنتيباس إلى الوراء كأنما أصابته الضربة في صميم صدره، وانقض الصدوقيون على يعقوب، وأخذ أليعازر يصيح ليصل صوته إلى الأسماع.

ولما هدأت الأصوات، التف بعباءته، وراح يوجه أسئلته كما يفعل القاضي. قال.

– بما أن النبي قد مات...

غير أن همهمة الجماهير قد منعته من مواصلة الكلام، لأن الاعتقاد السائد أن إيليا لم يمت، وإنما كان مختفيا.

ثار أليعازر على الجمهور، ثم استمر في أسئلته. قال:

– هل تظنه قد بعث بعد موته؟

فأجاب يعقوب: ولم لا؟

هز الصدوقيون أكتافهم وحملق جوناتاس بعينيه الصغيرتين وهو يحاول جاهدا أن يضحك ضحكات المهرج إذ ليس هناك ما هو أكثر حماقة من الاعتقاد بأن للجسد حياة أبدية، ثم أنشد للوالي، هذا البيت من الشعر وهو لشاعر معاصر:

"لا تظنن أن بعد الموت شيئا يخلد"

أما أولوس فكان محنيا على حافة مائدة الطعام والعرق يتفصد من جبينه، وقد أخضر وجهه، وأمسك بطنه بقبضتيه.

تظاهر الصدوقيون بالارتياع الشديد وقد أعيدت إليهم في اليوم التالي سدانة الهيكل – وأظهر أنتيباس الحسرة والأسى، بينما ظل فيتيليوس جامدا، لا يبدو عليه أي تأثر، بالرغم من الخوف الذي كان يعتمل في صدره، لأن في فقد ابنه ضياعا لثروته.

ولم يكن أولوس قد فرغ من قيئه حتى طلب الأكل ثانية، صاح: "هاتوا لي قشور الرخام، أو صوان ناكسوس، أو ماء البحر، أو أي شئ ليتني أستحم"!

وقضم بعضا من الفواكه المثلجة، وتردد بين طبق من اللحم وشحارير وردية اللون، وأستقر أخيرا على أن يأكل القرع الممزوج بالعسل، وكان الأسيوي يحملق فيه، فهذه القدرة على التهام الطعام، تنم عن كائن خارق، من جنس أعلى من أجناس البشر.

قدمت أطباق من كلى الثيران واليرابيع والبلابل وورق العنب المحشو باللحوم، كل هذا والكهنة يتجادلون في البعث.

وكان أمونيوس، تلميذ فيلون الأفلاطوني، يرى في ذلك حمقا منهم، ويفضي برأيه إلى بعض اليونانين ممن يسخرون من الكهانات. وانضم مارسيليوس إلى يعقوب، ووصف الأول للثاني السعادة التي استشعرها عندما تعمد على يد "ميترا"، ودعاه يعقوب أن يتبع يسوع. وسالت خمور النخيل والثمر الهندي وخمور "صافت" و"يبلوس"، يصبونها من الأواني الكبيرة إلى الجرار، ويفرغونها من الجرار، في الكؤوس، ومن الكؤوس تجري في الحلوق، والسمر يدور، والقلوب تتفتح غبطة. ولم ينكر يواسيم، بالرغم من أنه يهودي عبادته الكواكب. وأبدى تاجر من "عفقه" إعجابه بالبدو. وطفق يصف ما حواه معبد هيروبوليس من عجائب. وسأله الحاضرون عن مقدار ما يتكلف الحج إلى هناك. وتمسك بعضهم بدينهم الوطني. وجعل أحد الجرمان، وهو لا يكاد يبصر، ينشد نشيدا يمجد فيه تلك الربوة الإسكندناوية حيث تتجلى الآلهة، يشع النور من وجوهها. ورفض أهل "سيخيم" أكل اليمام، تقديسا للحمامة "عظيمة".

وكان كثير منهم يتناقشون وهم وقوف، في وسط القاعة، وتتصاعد الأبخرة من الأنفاس، وتختلط بدخان المشاعل، وامتلأ جو المكان بالضباب. ومر فانويل محازيا الجدران، وهو عائد بعد أن رصد رقعة السماء، ولكنه لم يتقدم إلى مجلس أنتيباس، خوفا من بقع الزيت التي كانت في نظر الأسينيين نجاسة كبرى.

وسمعت طرقات شديدة على باب القصر.

وكان من المعروف أن يهو كنعان سجين هناك، وظهر قوم يتسلقون طريق الجبل، وهم يحملون المشاعل، وزخر الوادي بكتل سوداء، وكانت الصيحات تتعالى من وقت لآخر.

"يهو كنعان! يهو كنعان!".

قال جوناناس. "إنه مصدر كل اضطراب"

وأضاف الفريسيون يقولون: "إذا استمر على هذه الحال، فلن نحصل بعد اليوم على المال."

وانهال اللوم بصور مختلفة فمن قائل:

"أبسط علينا حمايتك..!"

ومن قائل "إقضوا عليه"، وثالث يقول:

"لقد تخليت عن الدين!"

ورابع يصيح:

"كافر مثل آل هيرود!"

وصرخ هيرود: "ليس في كفركم! إن أبي هو الذي شيد لكم المعبد!"

وعندئذ أخذ الفريسيون وأبناء المحكوم عليهم بالنفي، وأتباع ماتاتياس يحملون أنتيناس أوزار أسرته.

كانت رءوسهم مدببة الطرف، ولحاهم نافرة الشعر، وأيديهم ناحلة شريرة ووجوههم مفلطحة، وعيونهم واسعة مستديرة، كانوا أشبه بكلاب الصيد ذات الأنف الأفطس، واندفع إلى أسفل المنصة قرابة اثنى عشر من الكتبة وخدام الكهنة، ممن أطعموا بنفاية النحائر، وهددوا أنتيباس بالسكاكين، وراح أنتيباس يخطب فيهم، ووقف الصدوقيون يدافعون عنه في رخاوة، ولمح مناحيا فأشار إليه بالانصراف، وبرهن فيتيليوس بموقفه على أن هذه الأمور لا تعنيه في شئ.

ولم يترك الفريسيون موائدهم، واجتاحتهم ثورة عارمه، فحطموا الأطباق أمامهم، عندما رأوا ما قدم لهم فيها من لحم حمار الوحش المتبل بالمرق والخضروات وهو الطبق المفضل عند "المسينيين"، ولحمه من اللحوم النجسة.

وهزأ أولوس بهم، وسخر من رأس الحمار الذي قيل إنهم يكرمونه، وإنهال عليهم بلذعات أخرى لكراهيتهم لحم الخنزير، وربما كان مصدر مقتهم هذا الحيوان أنه قتل إله الخمر عندهم، وهم شديدو الولع بالخمر ويدل على حبهم الخبر اكتشاف كرمة من الذهب في المعبد الأعظم.

لم يفهم الكهنة أقواله، ورفض "فينيس" وهو من أصل جليلي أن يترجمها لهم، فاستشاط أولوس غضبا، لاسيما أن "الأسيوي" قد اختفى بعد أن استولى الذعر عليه، ولم يعجب أولوس الطعام، فالمأكولات التي قدمت إليه مبتذلة، لم يعن بإعدادها العناية التامة. ثم نزل به الهدوء، عندما شاهد

ذيول نعاج شامية وهي عبارة عن صرر من الدهن.

كان فيتيليوس يمقت طباع اليهود، ومن الجائز أن يكون إلههم "مولاخ" الذي أطلق اسمه على المعابد التي قابلها فيتيليوس في طريقه، وعادت إلى ذاكرته قصص الذبائح من الأطفال الذين كانوا يقدمون قربانا، ومن بينها قصة الرجل الذي كانوا يطعمونه سرا ليكتنز لحمه. وثار شعوره كروماني، نافرا من ترمتهم هذا، ومن سخطهم على الصور والتماثيل، وشراستهم في إقامة العقبات، وأبدى رغبته في الانصراف، وأصر أولوس على البقاء.

أرخى ثوبه حتى خصره، واستلقى خلف كومة من الأطعمة، وكان متخما لا يستطيع تناول شئ منها ولكنه ألح في إبقائها أمامه.

وزادت حماسة الشعب، وتحدث أفراده عن الأمل في الاستقلال، وذكروا مجد إسرائيل، وكيف نزل العقاب بجميع الغزاة الفاتحين من أنتيجونا، إلى كراسوس إلى فاروس...

وقال فيتيليوس: "يا للأوغاد! " لأنه كان يفهم اللغة السريانية، ولم تكن مهمة ترجمانه إلا إتاحة الفرصة له للتفكير في الإجابة.

وأسرع أنتيباس فأخرج النوط المعدني، ونظر مشفقا ثم أظهره من الجانب الذي ضربت عليه صورة الامبراطور.

وانفتح فجأة مصراعا الشرفة الذهبية، وبرزت هيروديا في وهج الشموع، يحف بها عبيدها يحملون أقواسا من شقيق النعمان، وكانت تزين رأسها بتاج أشوري، يربطه بجبينها شريط يمر تحت ذقنها، وانتشرت ذوائب شعرها على شكل حلزوني فوق سترة أرجوانية اللون شقت على امتداد الكمين، ووقف

أمام الباب، بين وحشين من الحجر، يشبهان الوحشين اللذين يحرسان كنوز العطاردة، وبدت كأنها سيبيليا إلى جانب سباعها، ومن أعلى الحاجز الذي يشرف على أنتيباس، هتفت وهي ترفع كأسا في يدها:

"عاش قيصر!."، وردد فيتيليوس وأنتيباس والكهنة هذا الهتاف.

وفي هذه اللحظة، دلفت من آخر القائمة، غادة هيفاء، فجرت بين الصفوف همهمة. هي مزيج من الدهشة والإعجاب.

تلفها غلالة ضاربة إلى الزرقة، تحجب صدرها ورأسها، وتبدو من تحتها أقواس عينيها، وعقيق أذنيها، وبياض بشرتها، ويغطي كتفيها وشاح مربع من الحرير متموج الألوان، ينحدر حتى خصرها، تشده منطقة من الحلي الذهبية وانتثرت على سروالها الأسود أزهار اليبروج، وتقدمت في رخاوة، تطرق الأرض بخفيها الصغيرين المصنوعين من ريش طيور دقيقة الجسم.

وفي أعلا المنصة، أشاحت عنها غلالتها، فبدت كأنها هيروديا في ماضي شبابها، ثم راحت ترقص.

كانت قدماها تتسابقان على أنغام المزمار، ودقات الصناجات، وكأن ذراعيها الملفوفتين تناديان شخصا، يبتعد دائما عنها، فتطارده في خفة أسرع من خفة الفراشة، كأنها مرآة تسعى وراء صورتها، أو روح هائمة على وشك الإنطلاق.

واستبدلت الألحان الجنائزية بالصناجات، وتبدد الأمل، وحل الإرهاق، وانقلبت حركاتها وسكناتها إلى تنهدات، ونزل بجسمها كله همود وتراخ، فلم يكن يعرف ما إذا كانت تذرف الدمع على أحد الآلهة، أو تصعد الأنفاس مستسلمة لمداعبته، أطبقت جفنيها أو كادت، وأخذت تتثنى، وتهز بطنها بين

رفع وخفض كموج البحر، وتنفض ثدييها، ووجها جامد لا يتأثر، وقدماها لا تتوقفان عن الحركة.

شبهها فيتيليوس بالممثل الراقص "منستر"، وكان أولوس لا يزال في قيئه. وأنتيباس غارقا في حلمه، لا يفكر بعد في هيروديا، وبدا له أنه رأى الفتاة بين الصدوقيين، ثم تلاشت الرؤيا.

ولم تكن تلك في الواقع رؤيا، فقد أرسلت هيروديا ابنتها سالومي تتعلم بعيدا عن ماخايروس، خشية أن يقع الحاكم في حبها، وقد تأكد لها الآن ذلك.

ثم جاء دور الحب الثائر الذي يبحث عن شئ يطفئ به لهيبه، ورقصت سالومي كما ترقص الكاهنات الهنديات، أو كما ترقص ربات الخمر في "ليديا" كانت تتثنى من كل جانب كما تتثنى الزهرة التي تهزها العاصفة، وتراقصت أقراط أذنيها، وتلألأ الثوب على ظهرها، وانطلقت من ذراعيها وقدميها وملابسها، ألسنة من لهب لا تراها العين، ولكنها تأخذ بمجامع قلوب الرجال وترنم عود فردت عليه الجماهير بالهتافات، وتقوست سالومي حتى لمست الأرض ذقنها، وقد انفرجت ساقاها، من غير أن تنثني ركبتاها، فتوترت الأعصاب شهوة، واجتاحت الرغبة قلوب الجميع: من بدو اعتادوا الصوم والتقشف، وجنود رومانية واغلين في الفسق والمجون، وعشارين بخلاء، وأحبار شيوخ ملأت المنازعات قلوبهم حرارة.

ثم دارت حول مائدة أنتيباس، تهتز هزات جنونية، كأنها حية من حيات الساحرات في الهند، فأخذ أنتيباس يناديها بصوت تقطعه تنهدات الشهوة، كان ينادي: تعالي! تعالي! وهي تواصل دورانها، والطبول تدق حتى لتكاد تنفجر،

والجماهير تزأر، والحاكم يصيح بأقوى صوته. "تعالي! تعالي! سأعطيك كفر ناحوم! وسهل طبريه! سأعطيك حصوني كلها، سأعطيك نصف مملكتي!".

إرتمت على يديها رافعة كعبيها في الهواء، وطافت بالمنصة وهي في هذا الوضع، كأنها جعران ضخم، ثم توقفت فجأة.

كان عنقها يلتقي بسلسلة ظهرها، على شكل زاوية مستقيمة، ومرت ساقاها من فوق كتفها، وقد غلفتها لفافات ملونة، كأنهما قوسا قزح، تسيران إزاء وجهها، على قيد ذراع من الأرض، كانت مصبوغة الشفتين، حالكة سواد الحاجبين، نظرات عينيها مرعبة، وجبينها يتفصد عرقا تنحدر قطراته على جسمها كأنها بخار على رخام أبيض.

لم تنبث بكلمة وتطلع كل منهما إلى الآخر.

وسمعت في الشرفة طرقعة أصابع، فأسرعت سالومي وصعدت، ثم عادت فظهرت، ثم غمغمت وقالت في لهجة بريئة. "أريد أن تعطيني في طبق، رأس...." نسيت الإسم، ولكنها ما لبثت أن ابتسمت وقالت. "رأس يهو كنعان!".

تهاوى أنتيباس على نفسه متهدما، إنه مسئول عما وعد به، والجمهور ينتظر... لقد تنبأوا له بالموت. فربما تحققت النبوءة بموت غيره، وبذلك ينجو له! وإن كان يهو كنعان هو إيليا حقا، ففي إمكانه أن يخلص نفسه، وإن لم يكن إيليا، فليس في قتله أدنى خطر.

كان مناحيا واقفا إلى جانبه، وقد فطن إلى ما يجول بخاطره، واستدعاه فيتيليوس، وأفضى إليه بكلمة السر، التي يفهما من أفامهم على حراسة البئر. وارتاحت النفوس، فعما قريب ينتهي كل شئ.

ولكن، لم يكن مناحيا ليتعجل تنفيذ ما أمر به.

ورجع إلى القاعة وكان مذهولا مضطربا.

لقد مضت أربعون سنة وهو يعمل جلادا، أغرق "أريستوبل" وخنق "اسكندر"، وأحرق حيا "ماتاتياس، وضرب عنق "زوزيم" و"بابوس" و"يوسف" و"عنتيباتر"، وهو الآن لا يجترئ على قتل يهو كنعان! كانت أسنانه تصطك. وجسمه كله يرتعد.

رأى أمام الهوة ملك الشامريين الأعظم وقد أصبح كله عيونا شاخصة، يمتشق سيفا ضخما أحمر، قاطعا كألسنة اللهب. وقد جاء مناحيا بجنديين شاهدين على ما يقول.

قالا إنهما لم يريا إلا قائدا يهوديا انقض عليهما ثم اختفى بعد ذلك تماما.

فثارت ثائرة هيروديا، وأطلقت وابلا من الشتائم المرذولة الجارحة، وكسرت أظافرها غضبا على قضبان الشرفة، كما لو كان الأسدان المنحوتان ينهشان كتفيها ويزأران مثل زئيرها.

وثار أنتيباس لثورتها، وكذلك فعل الكهنة والجنود والفريسيون، وطالبوا جميعا بالثأر، وغضب الآخرون لتأخر المتعة التي ينتظرونها بفارغ الصبر.

وخرج مناحيا وهو يخفي وجهه.

وطال انتظار المدعوين أكثر من المرة السابقة، وضافوا بالأمر ذرعا.

وفجأة تردد في الأروقة صدى خطوات، وكان الضجر قد استولى على نفوس الحاضرين.

ودخلت الرأس، وكان مناحيا ممسكا بشعرها، في طرف ذراعه، مزهوا بما يسمع من هتافات.

ووضع الرأس على طبق وقدمه لسالومي.

وصعدت بخفة إلى الشرفة، وبعد دقائق معدودات عادت الرأس تجملها تلك العجوز التي شاهدها الحاكم في الصباح على سطح أحد المنازل، ثم التقى بها منذ لحظات في غرفة هيروديا.

ارتد إلى الوراء حتى لا يراها، وألقى فيتيليوس عليها نظرة غير المكترث بهذا الأمر.

نزل مناحيا درج المنصة، وعرض الرأس على القواد الرومان، ثم على كل من جلس إلى المائدة من هذه الناحية.

أخذوا يفحصونها بأنظارهم.

كان حد السيف المشحوذ قد انزلق من أعلى إلى أسفل، فشق الفك، وتقلصت جوانب الفم، فبدت مشدودة. وانتشرت بقع الدم المتجمد على اللحية، وانطبق الجفنان شاحبين في لون القواقع، والشمعدانات ترسل أشعتها حول هذا المشهد.

وصلت الرأس إلى مائدة الكهنة، وأخذ أحد الفرنسيين بقلبها في شئ من الفضول، ثم ثبتها مناحيا ووضعها أمام أولوس، فأيقظه منظرها، وراح يتطلع إليها، وكأنما العيون الميتة والعيون الواسنة قد أخذت تتناجى من خلال الرموش.

ثم قدمها مناحيا إلى أنتيباس، فسالت الدموع على خدي الحاكم.

وأطفئت المشاعل، وانصرف المدعوون، ولم يبق في القاعة غير أنتيباس وقد وضع خدية في راحتيه، وراح ينظر إلى الرأس المفصول، لا يرفع عنه عينيه بينما وقف "فانويل" في وسط البهو الكبير، يردد الصلوات همسا، وذراعاه ممدودتان.

كانت الشمس في طريقها إلى الشروق عندما حضر رجلان كان يهو كنعان قد بعثهما فيما مضى، جاء يحملان الجواب المرتقب منذ زمن طويل.

أفضيا به إلى فانويل، فابتهجت له نفسه.

ثم أظهرهما على المشهد البشع، فوق الطبق بين فئات موائد الوليمة. فقال أحد الرجلين:

– لا تأس، فقد نزل إلى حيث يرقد الموتى مبشرا بالمسيح!".

وفهم الأسيني الآن معنى هذه الكلمات: "لكي يرتفع يجب أن أنخفض".

وحمل ثلاثتهم رأس يهو كنعان، وشخصوا ناحية الجليل.

ولما كان الرأس بالغ الثقل، أخذوا يتناوبون حمله.

الفهرس